وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

صدقي إسماعيل
أوراق منسية
(٢)



رسائل لم تنشر

جمعتها وحررتها:

السيدة عواطف الحفار إسماعيل

راجعها وقدّم لها:

د. عبد النبي اصطيف

رسائل
لم تنشر

الإشراف الفني والطباعي

أحمد عكيدي

صدقي إسماعيل

أوراق منسية (٢)

رسائل لم تنشر

جمعتها وحررتها

السيدة عواطف الحفار إسماعيل

راجعها وقدّم لها

د. عبد النبي اصطيف

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

رسائل لم تنشر / صدقي إسماعيل؛ جمعتها وحررتها عواطف الحفار إسماعيل؛ راجعها وقدّم لها عبد النبي اصطيف .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩ .- ١٦٨ ص؛ ٢٤ سم .

(أوراق منسية ؛ ٢)

١- ٨١٦,٩ ا س م ر ٢- العنوان ٣- إسماعيل

٤- الحفار إسماعيل ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

كلمة شكر وتقدير

ما كان لهذه الأوراق المنسية، أن تتجسد في كتب مختلفة، تفضلت بطباعتها الهيئة العامة السورية للكتاب، لولا الدعوة اللافتة من الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة، لتكريم الأدباء والمفكرين الراحلين، بطباعة مؤلفاتهم، أو إعادة طباعتها، أو البحث عن أوراق منسية، لم يتح لها أن تطبع، وبقيت منسية. فله كل الشكر والاحترام.

وبهذه المناسبة أود أن أقدم شكري وتقديري أيضاً، للدكتور علي القيّم معاون وزير الثقافة، الذي اتصل بي ملحاً علي، لأن أجمع الأوراق التي تركها زوجي الراحل صدقي إسماعيل والتي لم تنشر ضمن المؤلفات الكاملة، التي طبعت ونشرت خلال أعوام الثمانينيات.

وكل التقدير للأستاذ محمود عبد الواحد المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب، لجهوده في طباعة ونشر هذه المؤلفات المنسية.

وقد بدأت بجمع هذه الأوراق والمخطوطات، العديدة جداً والمتنوعة جداً، منها رسائل لم تنشر، ومنها قصة لم نجد بعض أوراقها المفقودة — حينها — فلم تنشر وتحمل عنوان (رحلة إلى الغرب).

وبعد بحث طويل بين آلاف الأوراق، تمكنت من إيجاد كامل أوراقها، وهناك أيضاً الفصل الثالث من رواية (الحادثة) التي نشر منها في المؤلفات الكاملة، الفصل الأول والثاني فقط، وبقيت رواية لم تكتمل، وبعد صعوبة كبيرة، وجدت مخطوطات الفصل الثالث من هذه الرواية، وأصبحت الآن رواية كاملة.

وتعود غالبية النصوص إلى بداياته في الكتابة، كان يسجل في أوراقه الخاصة النثر والشعر، وما يرى من انطباعات عن العالم.

كان صدقي يشعر بالرهبة أمام الورقة البيضاء والقلم، والتي يحرص على اقتنائها كل وقت. كان يقول: لا أريد إلا "ورقة بيضاء وقلم، فأنا لا أقاوم مشاعري أمام الورقة البيضاء"، فهي هاجسه الأول، أما هاجسه الثاني فكان همّ التعبير، فلم يرضى عن ما يكتب، ويعيد النظر فيه، ويؤجل نشره، ثم يعيد كتابته من جديد، لاعتقاده بأن شيئاً ما، يعوزه - كما يقول الأستاذ أنطون مقدسي - ويتركه لسنة أو سنتين أو سنوات ثم يعود إليه، لكي ينضجه، لذا تكاثرت النصوص المخطوطة... ومن هنا كانت الصعوبة الكبيرة في تصنيف وترتيب هذه الأوراق، لتكرار بعضها في صيغ مختلفة، وأين يمكن أن تصنف، ومعرفة إن كان قد تم نشرها، أم ما زالت مخطوطة، وقد ينقص عدة أوراق من مخطوطة كاملة، فيجب البحث في آلاف الأوراق للعثور عليها، وغالباً ما أجدها حسب متابعة المعنى، أو حسب رقم الصفحات - المفقودة في الغالب - أو حسب نوع الورق الذي كتبت فيه المخطوطة. هذا بالإضافة إلى دراسات قيّمة ثقافية وفكرية وفنية، عن عدد من أعلام الفكر والفن والأدب في العالم تحت اسم (مواقف إنسانية).

أتمنى أن أكون قد عثرت على الكثير مما فقد من الأوراق والمخطوطات. وأنا حزينة جداً، لأن هناك فعلاً أوراقاً ما زالت مفقودة.

عواطف الحفار

❖ ❖ ❖

بين يدي هذه الرسائل

د. عبد النبي اصطيف

صدقي إسماعيل قامة في دوحة الأدب العربي الحديث في بلاد الشام، وليس ثمة من داع لتسويغ نشر أي حرف خطّه يراعه. ومع ذلك فإن إشارة برقية على أهمية الرسائل التي نضعها بين يدي القارئ العربي، ربما كانت في محلها، خاصة وأن صدقي إسماعيل أديب وناقد ومثقف ملتزم، عاش ما كتبه وخبره بالحال، قبل أن يُفصح عنه بالمقال، ولا ريب أن أية معلومات سيرية، تشي بها رسائله، يمكن أن تكون مفيدة في وضع قارئه في موقع أفضل، لفهم نتاجه الأدبي والنقدي معاً.

تكتب (هيلين غاردنر) عن أهمية المعلومات السيرية، في تعميق فهم النتاج الأدبي والنقدي، في خطاب الرئاسة الذي ألقته في «رابطة البحث في العلوم الإنسانية» في كانون الثاني من عام ١٩٨٠:

«لقد أقررت دائماً - بوصفي ناقدة - بأهمية المعلومات السيرية، لأني أعتقد أن القصيدة أو الرواية هي شيء تاريخي، أنتج من جانب كائن بشري في زمن معين، وفي ظروف معينة، وعلى الرغم من كونه مستقلاً، بمعنى أنه ذو وجود مستقل عن الخبرات والعواطف، التي صدر عنها الكاتب في صنعه له، فإن الخبرات والعواطف تكون ضمن الأسباب الداخلة في صنعه، مثلها مثل الملاحظات المتصلة بعالم الطبيعة، وعالم الأفعال الإنسانية، والتقاليد الأدبية التي يمكن أن يصدر عنها المؤلف. إن هذا الشيء التاريخي يمكن أن

يفهم إلى حد ما ويُستمتع به دون هذه المعرفة، ولكن المعرفة بكل أنواعها تستطيع أن تساعد الفهم والمتعة كليهما».

والحقيقة أن هذه الرسائل هي كنز غني جداً بالمعرفة، التي تساعد قارئ صدقي إسماعيل، على فهم كتاباته والاستمتاع بها في آن معاً.

ففضلاً عن الكثير من التفاصيل المتصلة بشخصه وبأسرته الصغرى وأسرته الكبرى، وهي تفاصيل على قدر كبير من الأهمية لأي دارس لنتاج صدقي إسماعيل، الذي نهل وعلَّ من نظريات التحليل النفسي من جانب؛ وأفاد منها في بنائه لشخصياته، وبالقدر نفسه، في دراساته النقدية ومقالاته عن الأدباء والفنانين العرب والأجانب من جانب آخر، فإن هذه الرسائل تكشف الكثير من خفايا التكوين الثقافي، ليس فقط لصدقي إسماعيل بل ربما لجيله، وهي خفايا مهمة جداً في تحديد المكونات الثقافية للأدب العربي في سورية، في مرحلة مهمة من تاريخها الحديث. وكذلك فإنها تفصح عن اهتمامات غاية في الأهمية لدى صدقي إسماعيل، وهي اهتماماته بالفنون الجميلة ولا سيما الرسم والموسيقى والنحت والسينما، إلى جانب اهتماماته الفكرية والفلسفية والأدبية في شرق العالم وغربه.

❖ ❖ ❖

رسائل لم تنشر

كانت قد أرسلت إلى عائلته وأصدقائه
في أوقات مختلفة

حلب ١٩٥٢/١١/١٢

العزيز أدهم[١]

تحية حارة وبعد

تلقيت رسالتك أمس وقد أرسلت إلي من دمشق، لأنني كما ترى ولسوء أو حسن الحظ قد تعينت في حلب، لأنهم لم يعينوا أحداً في دمشق هذه السنة. إنني أدرّس علم النفس والمعلومات المدنية للبكالوريا والبروفيه في ثانويتي المعري وسيف الدولة.. ومعلمو هذه المدرسة الأخيرة ما زالوا يذكرونك ويسألونني عن أخبارك أحياناً، ولا سيما (فاتح المدرس) (وفريد عوض) وهم جميعاً يسلمون عليك.. إنني مرتاح لوجودي في حلب، لأن حمّى الحياة العامة في دمشق قد أرهقتني طوال هذه السنوات. وهنا أستطيع أن أنصرف بعض الشيء إلى نفسي وإلى الكتابة. وقد بدا لي التدريس سهلاً جداً رغم أتعابه الفيزيولوجية، وأظن أنني سوف أتعود عليها.. أقضي الوقت هنا في التدريس حتى الظهر، وبعد ذلك انصرف إلى شؤوني الخاصة من كتابة وترجمة. أوشك أن أنتهي من الكتابة عن (فان غوخ)[٢] وسوف أستطيع الكتابة إليك طويلاً عن أشياء كثيرة لا علاقة لها بأمور الحياة الثقيلة.. ماذا تقرأ هذه الأيام؟ وماذا تفعل؟ قلت لك مراراً أن تكتب إلي بالتفصيل عن الشؤون الأدبية والفنية، لأنني في يقظة فنية حديثة، أخشى أن تزول.. إذا استطعت أن ترسل لي بعض الصور عن فنانين معاصرين فلا تتأخر.. وخاصة للفنان الروسي (فاسيلي كاندنيسكي)[٣] الذي يعتبرونه مؤسس الفن التجريدي في الفن المعاصر، لقد أنتج أول أثر (غير مشخص) في لوحة

---

(١) أدهم اسماعيل شقيق صدقي الأكبر وهو رسام معروف.

(٢) رسام هولندي شهير.

(٣) رسام فرنسي من أصل روسي.

مائية، ووضع مراحل الفن المجرد في كتابه (نظرات على الماضي) الذي يجسد فيه نظريته بأن الرغبة الداخلية للفنان هي التي تحدد الشكل. والانفصال بين مجال الفن ومجال الطبيعة يقوى يوماً بعد يوم. حتى أنه يرى، إن كلاً منهما منفصل تمام الانفصال عن الآخر... فألوانه صارخة حارة، ورسومه على جانب من الروح السديمية، غير أن هذا السديم كان يخضع لحتمية باطنية، وهي نزعة للتعبير عن القوى الكونية التي تتجاوز حدود الفرد... وبعد أن تعرّف على (فرانز مارك وأوغست مارك وبول كلي)(١) أصدر مجموعة (الفارس الأزرق) وأصبح هذا الاسم بعدها يرمز إلى اتجاه الفن الحديث في ألمانيا.

لا تنسى أن تكتب إلي دائماً يا أدهم.

ملاحظة: لقد افتتح في دمشق المعرض السنوي، وقد انتقد الكثيرون لوحاتك، وعلى كل حال لم يكن المعرض ناجحاً كما كان في السنة الماضية، هذا ما قاله لي (فاتح المدرس)(٢).

صدقي

---

(١) رسامون مشهورون من مؤسسي الفن الحديث.

(٢) من أكبر رسامي سوريا.

حلب ٢/٢/١٩٥٣

العزيز أدهم

تحيات وأشواق وبعد

تلقيت رسالتك أمس، ولم أستطع فهم أي أمر يتعلق بك، لم لا تكتب عن أحوالك بوضوح؟ فمثلاً لم نفهم فيما إذا كان تسجيلك في الأكاديمية الفنية، يعني تمديد السنة الواحدة التي منحتكم إياها الحكومة الإيطالية، إلى أربع سنوات، وما هي برامج الدراسة خلال صفوف الأكاديمية، وما نوع الشهادة التي تحصلون عليها... كيف تقضي أوقاتك وأيامك، ماذا تقرأ؟ وماذا ترسم؟

في هذه الأيام أقضي الساعات الطوال في القراءة والكتابة. لأن حسنات الشتاء على ما يبدو، أنه يرغم الإنسان على النظر إلى نفسه، والانصراف عن عالم الأشياء بألوانه وأضوائه، إلى عالم داخلي مليء، لا يستطيع المرء أمامه إلا الصمت. لأنه نزعة غريبة إلى التعبير واختيار الأشكال والصور، التي نستطيع بها إغناء الطبيعة الشاحبة، وبعث الحرارة والدفء في صقيعها اللانهائي. بين يدي الآن كتاب ضخم عن (الفنان وعمله) قام بتأليفه مؤرخ الفن المعروف (لويس هوتكور L. Hautecour) الذي طالما تحدثت عنه الأوساط الثقافية المعنية بتاريخ الفن خلال الأعوام الأخيرة. غير أن المجلد الأول قد اقتصر على موضوع واحد، ما يزال يتشعب في دراسات علم الجمال الأخيرة، وهو الإبداع الفني، وهو العنوان الذي وضع من أجل هذا الجزء. لقد تناول المؤلف في مجلده الجديد كل الدراسات السابقة الغزيرة عن تفسير الفن بصورة عامة، ودراسة عناصره وعوامله المتعددة، وقد سبق لهوتكور أن شارك في دراسة من هذا القبيل بكتاب نشره عام ١٩٦٥ بعنوان (الأدب والتصوير في فرنسا من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين) وقد

حاول في هذه الدراسة أن يركز على شخصية الفنان باعتباره العنصر الأول في الإبداع الفني، وأن يتناول على نحو خاص الفرق بين الشروط الشخصية للعمل الفني، أي الشروط المتعلقة بمزاج الفنان وظروفه الاقتصادية والطبقية الخ.. وبين الشروط التي ينبغي أن تتوافر لعملية الإبداع، أو الخلق الفني، الذي أصبحنا نصف به كل نتاج يحمل شيئاً من طابع الجدة والجمال....

ويرى هوتكور أن ثمة التباساً كبيراً بين العمل الخلّاق للفن وبين الفنِ ذاتهِ. لم يكن القدامى على خطأ حين اقتصروا في استخدام كلمة العبقرية على نماذج معينة من روائع الآثار وعلى أشخاصٍ معينين من أصحاب النبوغ، هناك فنان، وهناك فنان عبقري، ولكننا لسوء الحظ أصبحنا نتحدث عن أي نتاج جيد في الفن، على أنه ثمرة للعبقرية، وهذا خطأ. وكثيراً ما نعمد إلى تحديد العبقرية من خلال الفنان ذاته، وكلنا نعرف بعض الحدود الفاصلة بين (ميشيل آنج)[1] مثلاً وبين جميع الذين عاصروه، ولكنَّ هذا التمييز في الحقيقة ليس إلا تبايناً في رد الفعل على شروط واحدة. إن العبقرية تتحدد بمقدار ما يواجه به الفنان شروطاً معينة في البيئة على نحو عالمي، أي يحاول أن يتمثل في رده هذا كل ما هو عالمي، يتخطى حدود شخصيته ومزاجه، لكي يعبر عن حقيقة مجتمعٍ أكثر شمولاً.

لقد أردت يا أدهم أن تشاركني في قراءة آراء المؤلفين الكبار في الفن والأدب والفنانين. لتطلع على وجهات نظر مختلفة. اكتب لي عن رأيك.. وإلى اللقاء.

بانتظار رسائلك...

صدقي

(١) أعظم الرسامين الإيطاليين.

حلب ١٨/٧/١٩٥٣

العزيز أدهم

تحيات وأشواق وبعد

تلقيت رسالتك أمس، وكنت على أهبة الكتابة إليك، بعد هذا الانقطاع الطويل فالجميع بخير.. لم يستطع (نعيم)[١] المجيء في هذا الصيف لأن خدمته العسكرية قد آن أوانها، وقد نراه في أنطاكية وأظن أنه كتب إليك عن نجاحه وقصة النزاع بين الأساتذة من أجله. أما عزيز[٢] فلا نعرف عنه شيئاً، وكان قد كتب بأنه سوف يأتي إلى سوريا، ولم يصل. سررت كثيراً لنجاحك باللغة الإيطالية! وليتك تستطيع إرسال صور لرسومك الجديدة، لأن الجميع هنا - وقد تحسنت شهرتك في غيابك - يطلبون مني معلومات عنك وعن تطورات رسومك. أقيمت هنا عدة معارض تافهة، كان أحسنها معرض ثانوية الميدان لتلاميذك القدامى. وقد أقام (ميشيل المر وشورى)[٣] واثنان آخران معرضاً لا قيمة له، وأقيم معرض لبعض الآثار المكتشفة حديثاً، وفيه تماثيل قديمة جيدة ولكنها غير كاملة... قرأت عدة مقالات في الصحف الفرنسية عن زيارة (بيكاسو)[٤] لإيطاليا، ولكن ذلك كله لا يجدي شيئاً عن الرؤية. أكتب لي فور وصول هذه الرسالة إلى أنطاكية أيضاً، لأن نعيم ورفيقة[٥] وأمك سيكونون هناك.. إن مشروع سفري إلى روما مغرٍ جداً، ولابد أن نحققه في يوم من الأيام، فإلى الصيف القادم. لقد مرت موجةٌ من الحر على سوريا منذ أسبوع ولا تزال، ومرض الكثيرون، وأنا، منهم، ولذلك اضطررت إلى عدم التعرض للشؤون الفنية الأخرى. تحياتي الحارة إليك وإلى اللقاء..

الجميع هنا بخير يسلمون عليك.

صدقي

---

(١) الرسام نعيم إسماعيل وهو شقيق صدقي الأصغر.

(٢) الرسام عزيز إسماعيل وهو شقيق صدقي الأكبر

(٣) ميشيل المر ونصير شورى رسامان سوريان.

(٤) بيكاسو رسام إسباني شهير

(٥) الشقيقة الأصغر.

دمشق ١٩٥٤/٩/١٩

أخي الحبيب أدهم

أشواق وتحيات حارة

وصلتني رسالتك المطولة منذ عشرة أيام أو أكثر، ولم أستطع الكتابة إليك بسبب تنقلاتي الطارئة، لقد كانت تصلني بين حين وآخر الإعلانات المصورة عن أماكن رحلتك الرائعة، وكثيراً ما كنت أستغرق معك في مثل تلك الأجواء الفاتنة؛ وكم كنت أريد أن أنبهك إذ ذاك، إلى ضرورة كتابة يوميات أو تصويرها عما تمر به من مدن وأمكنة؛ لأن انطباعات فنان غريب، مهما تكن عابرة، لتزيد الأجواء معنى. فهل فعلت شيئاً من هذا القبيل؟ أرسله إلي. يبدو أن كل ما في «طبيعة» أوروبا من جمال وروعة، إنما يعود إلى يد الإنسان، لأن هذه اليد وحدها تملك المعنى الإنساني للجمال، هذا المعنى الذي نطلق عليه عادة اسم «الفن». يُقام في هذه الأيام في دمشق معرض دولي، لعلك قد سمعت به، وهو رائع جداً بالنسبة لهذه المدينة المحرومة من أي «صنع فني»، وقد أدهشني كثيراً أن تنقلب المدينة خلال عشرة أيام لا أكثر، إلى عاصمة فرحة جميلة، بسبب التبديلات البسيطة التي أشرف عليها بعض الخبراء الألمان، وأحدثت في نهر بردى والحدائق العامة والملعب البلدي، بمناسبة إقامة المعرض. الأمر كله يتعلق بإرادة الجمال. كيف صحتك في هذه الأيام، لم ترسل لنا صورتك الكريمة منذ أمد طويل، وأنت تعلم أنني أكون أحياناً بحاجة إلى وسائل إيضاح، عندما أجيب الرفاق عن الأسئلة التي توجه إلي عنك وعن أحوالك. أعيش هنا في بيتنا العريق، حياة هادئة بسيطة صامتة إلى أبعد حد. البرنامج العام هو المطالعة والكتابة... والخاص سهرة لطيفة على السطح في الليالي المقمرة والأحلام الكثيرة. لكم بدأت أحب العزلة

وأشعر بصفاء النفس في ظلالها... وصلتني رسالة مطولة من نعيم من معسكره، وأعجبتني هذه الروح الفنية في كتابته، وقد أجبته برسالة أطول، وروح فنية - أقوى بالطبع - وقد سألني عن أمر الذهاب إلى أستانبول. أما زلت أنت عازماً على الذهاب. انني لا أزال متردداً في هذا يا أدهم، لا أعرف لماذا، سوى أنني لا أميل إلى السفر إطلاقاً في هذه الأيام كما قلت لك، ألا يجب أن يراعي الإنسان شعوره الداخلي في أمور كهذه فهي تعتبر بحد ذاتها من أجلّ الانطباعات التي تتعلق بغبطة الشعور نفسه؟ وقد كتبت إلى عزيز رسالة منذ أسبوعين فهل تتراسلان؟ ماذا تقرأ وماذا ترسم؟ أكتب إلي مطولاً.

وإلى اللقــاء

صدقي

١٩٥٤/١٠/١١

أخي الحبيب أدهم

تحيات وأشواق وبعد

أكتب إليك وأنا جالس على طرف النهر في بندقية دمشق، أتأمل ظلال الجدران العتيقة في الجسر، وهي ترتعد في المياه الخضراء، والخريف الوليد يملأ كل مكان إيقاعاً ساحراً.. إن الخريف في دمشق هو أجمل أيام السنة في كل بلد، لأن فيه شيئاً من الصوفية العميقة التي يشعر بها الإنسان، عندما يحس تبدلاً في أعماق نفسه، تبدلاً في اتجاه الصفاء والهدوء، لا يقدر له مثله في مكان آخر...

لقد حدثتني في رسالة سابقة عن دراسة طرحت مشكلة الروح البدائية في الإبداع الفني... وقد وجدت صدفة، وأنا أقرأ الكاتب الألماني (غوته) أنه يؤكد على صفة غريبة في بدائية الفن، تتمثل في أن ما هو بدائي في هذا المضمار، هو ما يبدو لنا طبيعياً عفوياً وعادياً، لأنه ينبثق عن طبيعة الحياة. غير أنه في الوقت نفسه يشعرنا بأنه باق.. وأنه يتجدد باستمرار. وقد يصبح في يوم من الأيام، من أروع ما تركته لنا التجربة الفنية، وهذا في الواقع ما يشير إليه تاريخ الروائع التي ما زالت تعيش بيننا، وسوف تعيش أبداً.. وليس لنا إلا أن نحرص على دراسة المصدر الأول لها، أي الفنان. وهو حصيلة ظروف وعوامل تكون دائماً مغمورة ومجهولة.

أكتب دوماً إلى (عزيز ونعيم)، ويكتبان إلي مطولاً، (أكرم)[١] يسلم عليك كثيراً وقد كنا البارحة في سهرة تحدثنا فيها عنك أكثر من اللازم، ولعلك سمعت بظفره السياسي الرائع في حماة، ولا بأس أن ترسل له بطاقة تهنئة ودية لأن قائمته نجحت كلها في الانتخابات، وعنوانه المجلس النيابي، ولعلك سمعت أن (صلاح)[٢] نجح في دمشق أيضاً، (ووهيب)[٣] كذلك... اكتب إلي وإلى اللقاء.

صدقي

(١) الأستاذ أكرم حوراني.

(٢) الأستاذ صلاح البيطار.

(٣) د. وهيب الغانم.

دمشق ١٩٥٥/٢/١١

أخي الحبيب أدهم

قبلات وأشـواق

لقد مضى وقت طويل دون أن تصلنا منك رسالة يا أدهم فما السبب في ذلك؟ أظن أنك قد نسيت أن أمك وأختك هما في دمشق منذ ثلاثة شهور، وأمك - كما تعلم - في قلق دائم عليك، فاكتب إلينا دائماً. حياتنا هادئة وجميلة إلى أبعد حد، لا سيما في هذا الشتاء الدافئ ولا يزال خالي معنا أيضاً، وهو يسلم عليك كثيراً، وصحة الجميع جيدة، والمنزل كما تعرفه نظافة وهدوءاً... ماذا تفعل في هذه الأيام وماذا ترسم؟ لقد أعدت النظر في كتابي عن (فان غوخ)[1] وسوف أطبعه في هذا الشهر، ذلك أنني في هذه الأيام اشتغل بالكتابة في جهد متواصل، وكأنها مصيري الوحيد. وقد طبعت كتاباً جديداً عن «محمد علي القابسي» وهو مؤسس النقابات التونسية، وسوف أرسل لك نسخة منه. وعلى الرغم من ساعات التدريس الكثيرة، فلا أزال أجد في المطالعة والكتابة، كل شيء. وقد ألقيت منذ أسبوعين محاضرة في الجمعية السورية للفنون عن (هنري ماتيس)[2] والأرابسك، إن تحول (ماتيس) إلى الخطوط على هذا الشكل مما يلفت النظر، أظن قد كتبت إليك عن اهتمامي الكبير منذ سنة، بجميع أنواع الفنون الشرقية ولا سيما اليابانية والصينية والعربية: ماذا تعني النقوش والخطوط بالنسبة للتجربة الفنية؟ لقد كان (فان غوخ) يصر عليها في جميع رسومه؛ بالنسبة للفلسفة ذلك يعني حذف الزمان والمكان، ومحاولة تصوير الحركة بشكلها الحسي في النقوش،

---

(١) فان غوج — رسام هولندي مشهور.

(٢) رسام فرنسي مشهور.

وبمظهرها الروحي البحت في الخطوط. ألديك ملاحظات في هذا الموضوع، وبالمناسبة، أنني أدرس الآن الآداب والفنون في الصين والهند، وأترجم كتاباً عن الأدب الصيني، فإذا عثرت بكتب فيها شيء من أشعار الشرق الأقصى، لا تبخل بها علينا. لقد وصلت المجلة الأنيقة التي أرسلتها، وقرأت «فرانسواز ساغان»[1]، إنها قصة رائعة بأسلوبها ورشاقتها، ولكن هذا النوع من الأدب المنحل لم يعد يعجبني، ليس لضعفه، فإن الكاتبة موهوبة بشكل يلفت النظر، ولكن لضعف المواضيع التي تبحث فيها، فمعظم الكتب التي تتناول هذه المواضيع، تحوم حول تجارب شخصية، فيها الكثير من الصغار الأناني. الأحوال العامة عندنا كما تعرفها، دخان، ضباب في كل ناحية، وبالمناسبة (صلاح[2] وأكرم وميشيل)[3] يسلمون عليك دائماً ويسألون عن أخبارك... لا تنسى يا أدهم أن تكتب رسالة مطولة عن أحوالك من أجل أمك.

والجميع يسلمون عليك، وإلى اللقاء.

بانتظار رسالتك!..

صدقي

(١) كاتبة فرنسية.

(٢) الأستاذ صلاح البيطار.

(٣) الأستاذ أكرم حوراني، الأستاذ ميشيل عقلق.

دمشق ١٩٥٥/٢/١٤

أخي الحبيب أدهم

قبلات وأشواق

تلقيت اليوم رسالتك، وكنت قد أرسلت إليك البارحة رسالة مع (الشيك). وقد عمدت إلى الكتابة إليك من جديد فوراً لأنني لمست أنك في أزمة لا بأس بها، تجلت من رسالتك الأخيرة الشبيهة بالمرثية الحزينة، وقد تألمت كثيراً، لأنني لم أكن أعرف شيئاً عما أنت فيه... فكيف هي أحوالك من هذه الناحية يا أدهم؟ أكتب إلي بالتفاصيل والوضوح عن كل شيء، فأنا في الواقع لم أكن اهتم كثيراً بالزمن في إرسال الرسائل وغيرها إليك لأنني كنت أظن أن الزمن لا يؤثر كثيراً، وأنك من الناحية المادية في حال جيدة لا تقتضي العجلة الملحة؛ وعلى هذا الأساس تصرفت هنا بشيء من «اللامبالاة» لاعتقادي بأن أمورك تسير على ما يرام... إنني أستطيع أن أرسل إليك يا أدهم ما تريد، فاكتب إلي فور وصول هذه الرسالة، عن كل ما تحتاج إليه، لأن أموري المالية هنا قد انتظمت إلى حد ما.

إنني بانتظار رسالة سريعة جداً منك، ولتكن أكثر سخرية بالصعوبات يا أدهم، فالمعكرونة رخيصة في إيطاليا على ما أعرف.. وإلى اللقاء.

صدقي

دمشق ١٧/٤/١٩٥٥

أخي الحبيب أدهم

قبلات وأشواق

أكتب إليك من غمرة ضوضاء، وأضواء فرحة تملأ دمشق بمناسبة عيد الجلاء، فقد احتفل الشعب بهذا العيد في هذه السنة، وكأن الجلاء لم يتم إلا من عهد قريب، ولم يكن ذلك إلا رداً على التهديدات السياسية المختلفة التي توجه إلى سوريا بين حين وآخر. (انتهى الحديث السياسي) الجميع هنا في صحة جيدة، وحياتنا لا تزال كما هي هادئة وجميلة إلى أبعد حد. ونحن ننتظر قدوم نعيم الذي سوف يأتي بعد أسابيع ـ على ما زعم ـ

اكتب إليك من مقهى الجسر، وما زالت هناك مشكلة تشغلني سواء في الأدب أو في الفن، ألا وهي مشكلة الالتزام، والالتزام حقيقة، وما من رسام يستطيع أن يفلت من قبضة المأساة التي يحياها عصره، أعني العصر الذي نعيش فيه بصورة خاصة. إن أكثر الرسامين إيغالاً في العزلة الفنية والانصراف إلى الصنعة، هم أكثر الأشخاص التزاماً، ولا يعني هذا أنهم يرسمون الحوادث والمناسبات، بل يعبرون عن انطباعاتهم أمامها، بلغتهم الخاصة، هذه اللغة هي اللون. فمثلاً ألوان (روو) (Rouaut)[١].. إن ملامح العصر كله ترتسم في كل لوحة من لوحاته، وكذلك (بيكاسو)[٢] الذي يمثل الفنان المتجدد في مثل هذا التعبير.

إن الفنان المعاصر يعبّر دائماً عن إيقاع العصر بصورة لم يعرفها أي فنان من أي عهد مضى...

---

(١) جورج روو — رسام فرنسي.

(٢) رسام أسباني شهير.

لقد ترك الفنان الإنكليزي (هوغارت) مثلاً بعض الرسوم النقدية يتهكم بها على معايب السياسة والتقاليد في مجتمعه. منها لوحة الانتخابات، والتجار، والزواج.. وصوّر (غويا)[1] مآسي الحرب في لوحته المعروفة (الإعدام) ورسم في مجموعته المسماة (نزوات) كثيراً من متناقضات المجتمع في الحوادث التاريخية. ولكن كل هؤلاء لم يكونوا من طبيعة ملتزمة - كما أخبرتني في رسالتك السابقة وتحدثت فيها عن لوحات (دافيد)[2] والفنان (دومييه)[3] الذي تعتبر لوحاته الشعبية ورسومه الساخرة - كما قلت - مرآة للمشاكل الاجتماعية في عصره، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا من طبيعة ملتزمة. وكأن الأداء الفني وحده المحور الأساسي في إنتاجهم. فهل يعني ذلك أن الالتزام في فن التصوير هو عادة قديمة، لم يعد لها مكان في العصر الحديث؟

بانتظار رسائلك الفنية لك قبلاتنا جميعاً وإلى اللقاء.

صدقي

(١) فرانشيسكو دو غويا رسام أسباني مشهور.

(٢) لويس دافيد رسام فرنسي.

(٣) هونوريه دومييه رسام فرنسي.

دمشق ١٩٥٥/٨/٢٨

الأخ الحبيب أدهم

أشواق كثيرة وبعد،

أكتب إليك من ضفاف النهر وقد أصبح مستنقعاً أخضر، صالحاً لدراسة فنية خصبة، بالنسبة للمبتدئين في مزج الألوان أمثالي، مع العلم أنني أصبحت أرسم ساعتين كل يوم، فقد يفتح الله على هذه الموهبة الوراثية، فتتفتح حتى في أقل أفراد الأسرة نبوغاً (تواضع لابد منه). اليوم صباحاً سافر خليل بكري[1]، وقد قمنا بما يجب تجاهه حسب نصائحكم، فدعوناه مرتين للغداء، وحملناه بدلتكم وعلبة الحلوى، التي تبرع بها خالك العزيز الذي سافر اليوم إلى حلب لقضاء عطلة العيد، وبقينا في البيت ثلاثة فقط: أمك ونعيم و أخوك، (رفيقة)[2] سافرت لقضاء أيام في حلب... ودمشق في هذه الأيام جميلة جداً كعادتها على الرغم من الحر الشديد، الذي اضطر لمكافحته إلى السهر حتى الفجر، الوقت الوحيد الذي يبرد فيه الطقس، ويستطيع الإنسان أن يخلو إلى نفسه مطمئناً... نعيم يرسم في النهار وينام في الليل. ألا تزال تحب النوم مثله؟. وقد بدأ بمعاملة الجنسية، وسوف ينتهي منها حتماً بعد العيد، بمساعدة أكرم الذي كان ينتظر تأدية خدمة كهذه، وقد تحمس لها كثيراً، وهو يسلم عليك أكثر... كما أن مجلة الجندي هنا قد كلفت نعيم برسم بعض الغلافات لها، وأتوقع أن يكلف بأشياء أخرى من هذا القبيل، ورأيي كرأيك أن مجال العمل الحر أوسع بكثير بالنسبة لنعيم من التدريس، الذي يصبح سهلاً بعد الحصول على الجنسية.

---

(١) أحد الأصدقاء.

(٢) شقيقة صدقي.

كيف صحتك في هذه الأيام، يا أدهم، وماذا تعمل، وبماذا تشعر؟ إنك لا تكتب لنا إلا الشيء القليل عن هذه الأشياء التي تهمني أكثر من أي شيء آخر. الأحوال العامة كما تعرفها لا تزال قلقة كالحة، تشبه الصورة التي انتحر أمامها (فان غوخ)[١]، فلا فائدة من أي شيء، ما دامت الغربان السود تملأ الجو. (تشبيه رمزي للوضع السياسي). لقد اشتريت أمس مجموعة من الفن الصيني، وأعتقد يا أدهم أن من المفيد أن تدرسه جيداً، لأنه مصدر إلهام جديد لكل فن معاصر، لقد كان (فان غوخ) على حق في إعجابه به وخاصة في مجال النحت..

فهناك ظاهرة غريبة ترجع إلى قرون بعيدة تم فيها اكتشاف آثار قديمة ترجع إلى العصر الحجري، تشمل عدداً هائلاً من التماثيل، وفق أسطورة تقول بأن الإنسان كان يدفن الأحياء مع الميت، ولا سيما الخدم والنساء، إلى أن كان القرن الثالث قبل الميلاد، حين ماتت الإمبراطورة (سوهيم)، وكان يجب أن تدفن معها جواريها وخدمها. ولكن الإمبراطور (سوينين) أشفق عليهم، وفكر بوسيلة يستبدل فيها هذا العرف القاسي، وبقي يفكر طويلاً دون فائدة، إلى أن اهتدت إحدى جواريه إلى حل للمشكلة، فأشارت عليه أن يدفن مع الإمبراطورة تماثيل للجواري والخدم. ومن ثم أصبح صنع التماثيل جانباً من الأعراف التقليدية في حياة الناس، وهذا العرف الصيني القديم، يرجع إلى تزويد الميت بنفس البيئة الاجتماعية، التي كان فيها خلال حياته. ولهذا العرف أهمية كبرى من الوجهة الفنية، ذلك أن الصينيين القدامى، كانوا يحرصون على تجسيد الانفعالات المختلفة في وجوه التماثيل. فبعضها يحمل ملامح الحزن والغضب، وبعضها يشير إلى الضحك والفرح، وكأنهم يحاولون بذلك عرض شتى المواقف التي كان يقفها الآخرون من الميت. كما يدل هذا على أن فن النحت كان في مرحلة متطورة، ساهمت في بناء الحضارة.

قبلات من الجميع وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) رسام هولندي شهير.

دمشق ١٢/٩/١٩٥٥

الأخ الحبيب أدهم

قبـلات وأشـــواق

البارحة سافر عزيز إلى استانبول بعد أن قضى في دمشق عشرين يوماً أحببناه فيها كثيراً، وسررنا به، ولكنني لحظت يا أدهم أن في نفس هذا «الأخ» المعتزل كآبة داخلية غامضة، تجعله بحاجة أكثر إلى اهتمامنا و.. فهل تتصل به أنت؟ وتراسله، لقد قررت أن أزوره في الشهر القادم فلا تنسى أن تكتب إليه دائماً، وتحاول إدخال السرور على نفسه، بإرسال رسوم أو ما أشبه ذلك. لقد كان من حسن الحظ أنه جاء وقت المعرض الذي تعرض فيه آثار فنية لا بأس بها، ولا سيما من إنتاج الصين الشعبية؛ لقد حدثني (سليمان)[1] طويلاً عن الأيام الرائعة التي قضاها معك وهو في شبه جنة، وقال لي إنك عازم على السفر إلى أسبانيا، اكتب إلي فور وصول هذه الرسالة؟.. نعيم انتهى تقريباً من عملية التجنس، وأظن أننا أخبرناك أنه يرسم لمجلة الجندي الغلاف، ويتقاضى بعض الأجور، ولكنني ما زلت أفضل أن ينصرف للرسم دون الارتباط بأي عمل، ولكن أمك ما زالت تلح على ضرورة تأمين مكان رسمي له، وسيقدم في الغالب إلى فحص المدرسين. ما طلبته مني عن (كلي)[2] لم أجده في المكتبة، وليس ذلك لأنني أضعته يا أدهم، فأنت تعلم أن (كلي) غير مرغوب فيه هنا، ولكن لأن عدد المجلة الذي نوهت به قد ضاع منذ زمن قديم. وعلى كل حال فإن لدي كتاباً عن التصوير الألماني الحديث، فيه أشياء عن (كلي) فهل أرسله لك؟ والحديث عن الرسام الألماني (بول كلي) (Paul Klee) يدفعنا

---

(١) الشاعر الكبير سليمان العسيى.

(٢) بول كلي رسام ألماني شهير.

إلى دراسة التمازج بين هذين الفنين: الفن العربي والفن الغربي، ويبدو لنا لأول وهلة أن الفن الغربي يتناقض في كل شيء والفن العربي.. لأن الأساس الذي بني عليه الفن الغربي أو الأوروبي على وجه التحديد، هو العالم الخارجي بما ينطوي عليه من ظواهر الطبيعة، والوقائع التاريخية،

ومهما يكن للفن من صفة إنسانية شاملة، فإن الطابع القومي يلقي ظله على كل أثر فني. إن لكل أمة طاقة فنية مبدعة، لها خصائصها ومميزاتها، وإن جميع البدايات في الإبداع الفني متفرقة متباعدة. ولكنها تلتقي أبداً في النهاية مثلما تلتقي الينابيع في نهر واحد... مثل تلك الطاقة قدمت لنا فناً مصرياً، وفناً يونانياً، وفناً صينياً، وفناً غربياً، وفناً عربياً...

الجميع يقبلونك... أكتب لي يا أدهم وإلى اللقاء.

صدقي

من رسائله إلى عائلته

حلب ١١/١٢/١٩٥٢

ع.. الحبيبة

كتبت إليك منذ أيام، ولم أتلق شيئاً منك اطمئن فيه إلى أنك لست مريضة. فهل أنت مريضة؟ ولم لم تكتبي إلي، وأنت تعلمين مدى ما يمتلكني من القلق والاضطراب عندما تتقطع أخبارك عني، وتعلمين أنك الكائن الوحيد الذي يهمني أن أعرف كل شيء عنه، في كل لحظة من الزمن. لقد كنت مريضاً، كما قلت لك في رسالتي السابقة، ولكنني الآن في حال جيدة. أكتب إليك في الصباح، من مقهى صغير يشبه الكوخ، في الحديقة العامة، وكل ما حولي كآبة جميلة كالموسيقى، تذكرني بك وتبعث في نفسي حنيناً جارفاً، إلى أن أراك وأتحدث إليك... فأين أنت الآن في مثل هذه الساعة المتيقظة من الوجود؟ إن إحساسي بجمال الطبيعة، وهي هنا في أجمل رعشاتها، قد أصبح مقترناً بك إلى الأبد. الغيوم التي تنزاح في الشرق عن زرقة متألقة، والأزهار الشتائية الرطيبة، والأغصان العارية كوحشة الابتعاد، وشجيرات السرو ذات الاخضرار الذي تحبين، والدروب الصغيرة خلال حقول الورد المنداة؛.. كلها مسارح وإطارات سحرية قد أعدت لك، من أجل أن يخطر فيها شالك وسمرتك وعيناك، «من أجل» ليست كلمة عابرة بل هي كل ما يحمل وجودنا على الأرض من معنى. كل ما في العالم من صور وأشكال، يغمغم ويتنهد من أجل القلب الإنساني الذي يخفق له ويجدده. وكل ما في القلب من حيوية وعاطفة وقدرة على التجديد، إنما يبدو في الجمال الذي عرف الحب، عرف كيف يحررنا من تلك الهموم الصغيرة التي ترهقنا بها ضرورات اليوم، هذه القيود التي تثقل خطى «الجميع». والجمال الذي نحب، يعيش معنا أبداً، حاملاً الآلاف من الهموم الكبيرة: هموم القضايا الحقيقية في وجود الإنسان، وهل من قضية أثمن من أن ننفعل في سبيل التحرر مما ألفه «الجميع» لكي نختار الصورة التي نريدها لنا في الحياة، لكي تكون هذه الحياة إيانا، وحدنا، تحمل لوننا وكل ما في قلبنا من صدق وبساطة، ونزعة إلى «الأكثر تألقاً وإرهافاً».. ذلك لا يُقدر لمن يقول: إن الحياة لي، بل لمن يستطيع أن يكون هو الحياة، أن يقول: سرمدية اللحظة هي أن تصبح مليئة، أن لا يكون ثمة

فراغ، أن يموت إلى الأبد همّ التخلخل والعدم والحيرة، من وجودنا. ولا سبيل إلى أن يموت هذا الهم، إلا بالاستجابة لذلك النداء العميق الذي يهيب بنا أبداً، أن نعطي كل وجودنا، لكل شيء، وفي كل لحظة، ما دمنا قد استيقظنا على حب الجمال الذي أخذنا إليه، ووضع يدنا على ما هو إنساني خالق أزلي في نفسنا، هل نُلام إذا كانت حياتنا ابتهالاً ولهفة، إلى القلب النبيل والسمرة المتيقظة؟..

ماذا تقرأين؟ هل تكتبين شيئاً تستطيعين إرساله إلي؟ منذ أيام وأنا مستغرق في قراءة مسرحيات «غوته»[1] الكاملة. وقد انتهيت اليوم من قراءة مسرحية شعرية رائعة له هي «باندورا» وأعتقد أنها أجمل ما كتب، لأنها تضم فلسفته كلها؛ الفعل والحب. بالفعل action يمتلك الإنسان مصيره، وبالحب يملأ الزمن بما هو إلهي، ويعطي مصيره معناه المبدع:

«ومن ثم صعّدت بصري، وعلى الغيوم الشاردة عبر الفضاء،
كان عالم حبيب يطوف بأسره، وصور شتى من وجوه الآلهة.
وكانت باندورا تعددها لي، وتريني الصور المرفرفة في الأوجه،
كانت تقول لي: هناك، هناك تشرق لك السعادة والحب.
قلت: كيف تشرق هناك؟ وأنا أعرفها كلها فيك أنتِ:
باندورا، لا خيبة في الجمال، للقلب المحب؛...»

وسوف أترجم المسرحية كلها، رغم صعوبة الترجمة، وأرسلها إليك. هل تذهبين إلى الجامعة؟ هل بدأت بقراءة شيء عن الفلسفة الإسلامية، إن تعقدها وصعوبتها يتطلبان بعض الجهد... حلب في هذه الأيام حزينة كثيرة الأمطار تشبه فصلاً مملاً من قصة جيدة. أقضي معظم الأوقات في المدرسة وفي هذا المقهى الهادئ، ولكنني لا أستطيع الكتابة لسبب أجهله، رغم أن الوقت والجد متوفران كثيراً. طلبت إليك أن تستمعي إلى (سيبليوس)[2] يوم الثلاثاء، فهل فعلتِ؟ أو تفعلين كل ثلاثاء؟ اكتبي إلي. تحياتي إلى الجميع، وأشواقي الحارة إليك وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) ولفغانغ غوته كاتب ألماني شهير.

(٢) جان سيبليوس موسيقار فنلندي.

حلب ١٩٥٢/١١/٢٥

إلى ع..

والغصون التي تعرّت لماذا هجرتها نضارة الأوراق؟
والدروب البعاد طافت بها الريح، فأمست خلواً من العشاق
وبقايا نهر، ولا وحشة الموت، وصمت، ولا دموع الفراق
وصقيع عاتٍ، فمن أين شبّت نار حبي، وكيف كان احتراقي؟

ملء نفسي، تطوف ذكراك سمراء، كصوت آتٍ من الأعماق.

حلب ١٣/١٢/١٩٥٢

ع. الحبيبة

أكتب إليك فور وصول رسالتك الأخيرة، لأن ذلك على ما يبدو هو السبيل الوحيد لأن تنتظم رسائلنا، وتلتقي. وكنت قد أرسلت لك البارحة رسالة مضطربة، أسألك فيها عن مرضك وسبب تأخرك، أرجو أن تكون قد وصلت إليك، لقد سررت كثيراً لأنك أصبحت في صحة جيدة، وأسفت كثيراً لأنني نقلت إليك شيئاً عن اضطرابي وقلقي بسبب آلامك، ولكنك قد لا تتصورين هذه الوحشة الغريبة التي تنشرها هذه المدينة الجرداء، بشتائها الكئيب على النفس، التي نأى عنها الجمال الذي أحبت، عندما تشعر هذه النفس الحزينة بأنه لا عزاء ولا سلوى، إلا هذه الرسالات الصغيرة التي تحمل كل شيء، والتي هي وحدها تستطيع أن تبدد صقيع الفراغ والعزلة. أولا أُعذر إذا رجوتك أن تكتبي إلي دائماً؟..

لقد لمست في رسالتك شيئاً من المأساة، ولا أعرف كيف أبدأ بلومك على شعور كهذا. أمام الحب وحده يتراجع القدر، لأن الحب هو القدر الأقوى الذي يفرض مشيئته على كل ما في الوجود، لأنه ظفر القلب الإنساني على حكمة الحياة وقوانينها الحصيفة، وتمرده على الموت والزمن والهم. ولكم أود أن أكون إلى جانبك، عندما تشعرين بهذا العذاب النبيل، الذي يعلمك إياه قلبك الطيب، بحرارته وجموح نزعاته، إذن لوضعت يدي في يدك، وقلت لك في كثير من الاعتزاز: يجب أن نبارك الحياة كل يوم، لأنها أتاحت لنا الانطلاق في منزلها الدافئ الكسول، إلى رحاب العوالم الغنية الأخرى، التي تصبح فيها الكلمة والهمسة، قانوناً جديداً للحياة، وتعود فيها النظرة والابتسامة، شكلاً حياً للعالم. من أجل ذلك نعرف الهم والعذاب، لأن

الحب قد اختارنا وضمنا إلى مملكته المتألقة الأشياء، المليئة الساعات.... لماذا تحمل إلي أنفاسك يا عواطف، أبداً، كل هذا التفاؤل وهذا الإيمان.. أقرأ كلماتك في حرارة وشغف لا حدود لهما، وأسمع صوتاً من الأعماق يشعرني بأن فيك، أيتها السُمرة الشاحبة، نفحة من المستحيل. ليس ذلك شعراً ولا خيال مجنون، بل حقيقة مليئة، نشعر بها بكل جوارحنا، وما يشعر به القلب الذي يُعطي هو الحقيقة وحده...

الأشعار القديمة لا تعودي إلى قراءتها، إلا إذا أردت التسلية في الاستماع إلى تلك الإيقاعات المضطربة، التي حاولتُ فيها عبثاً أن أغني بعض صور حبك وفتنة عينيك. وآية هذا الاضطراب أنه كان غناء قلقاً حزيناً، في حين تلبث ملهمته إلى الأبد، خفقة من الفرح والغبطة. فهلا أشعرتِني أبداً، بأنك هذه الخفقة، وأن العذاب والهم لن يجدا سبيلاً إلى بساطة نفسك بعد الآن، في الرسالة القادمة سوف أرسل إليك قصائد جديدة كتبتها عنك، وقد تعرفين منها الشيء الكثير عن تحوّل تلك الهواجس والهموم إلى إشراق لا نهاية له...

صحتي جيدة. ولكنني لم أستطع استئناف أعمالي العادية بعد، ومنها إتمام (بوشكين)[1]، ولكنني سوف أنهيه هذا الأسبوع في الغالب، وسوف أخبرك عن ذلك. إن موضوع «طبيعة النفس عند أفلاطون» جيد، لولا أنك سوف تضطرين فيه إلى الاهتمام بكثير من الأمور الجدلية «المنطقية» التي أولاها هذا الفيلسوف القديم اهتمامه. وسوف أرسل لك كل ما تقع عليه يدي من مصادر. لقد اتصلت (بأسعد)[2] فوراً من أجل دفتر الفلسفة اليونانية، ولكنه لم يكن في المدرسة، وذهبت إلى البيت فلم أجده أيضاً، ولكنني سوف ألقاه في الليل، وسوف أرسل إليك الدفتر فور حصولي عليه... هل بدأتِ بالدراسة؟ وبماذا بدأتِ؟.

(١) شاعر وكاتب روسي.

(٢) الدكتور أسعد درقاوي.

عواطف،

كلما بدأت بالكتابة إليك، تيقظت حولي جميع الأشياء، وامتلكني نوع من الحنين والإرهاف، يجعلني نهبة لكل نسمة ونفحة من صور الطبيعة حولي، أهو اسمك العذب الذي يشيع الحياة والتفتح بأشكال العالم وألوانه فترغمني على التحدث عنها إليك، كما كنت أحدثها أبداً عنك، منذ يومين والضباب يحجب كل شيء في هذه المدينة؛ ضباب يشبه الأردية الواهية التي يسدلها الزمن على الذكريات.. ولكن ذكرى حبيبة واحدة تتمرد على كل شيء، وتمزق كل نقاب، لأنها فوق الزمن، ذكرى؟ بل حياة دائمة وحضور تتوجه فيه عينان دامعتان إلى طريق العودة... تحياتي الحارة إليك وإلى اللقاء.

أين تمضي في الليل مركبة الحب وقد أغلقت عليها الدروبُ واستبدت بها العواصف رعناء، وهبت من جانبها الخطوب، وتشكت حوافر الخيل أن يسخر منها هذا المكان الجديب، أين تمضي؟ تمضي إلى جنة الأرض إلى حيث كل غصن رطيب، حيث ينهال من شفاه الأزاهير نداء.. هنا يعيش الحبيب.

صدقي

حلب ١٩٥٢/١٢/٢٠

الحبيبة ع.

أشواق حارة وبعد

لا أعرف كيف أشكرك على الغصن الأغبر الذي تضمنته رسالتك الأخيرة؛ إن إرهاف نفسك لا حد له؛ وكم أنا فخور بحبك وحنانك. أشياء كثيرة في الحياة لا تبرر ولا تحمل منطقاً، ولكننا نشعر بأنها أجمل ما في الحياة، منها هذا الوجد اللاهف الذي تثيره فينا كلمات بسيطة، أو أشياء صغيرة، لمجرد معرفتنا بأن من نحب، هو الذي قال هذه الكلمات أو لمس بأنامله الغضة تلك الأشياء. عندئذٍ يبدو للقلب أن الحب ليس شيئاً يضاف إلى وجودنا، بل هو حقيقة هذا الوجود، وعنصر الحرارة والإبداع فيه. ومن الأعماق يتصاعد إيمان حار كالابتهالات، بأن ما سميناه حباً ليس في الواقع إلا الكائن الذي أحببناه، هذه الصورة المجسدة الحية للجمال، الذي يحمل بذاته مبررات وجوده، والذي تبدو كل لمحة منه وسمة، إيماءة ترشد خطانا المتعثرة إلى كل ما هو أصيل ورائع في وجود الإنسان. لقد كنت أظن في الماضي، أن الحب تجربة أو حادثة فذة، أستطيع أن أبرر بها حياتي. ولا بد للقلب الإنساني أن يبرر خفقاته وجريان الدم فيه. وفكرة الحادثة هذه دفعتني إلى الارتباط بمصير الشعب أحياناً، وبالشعر أحياناً أخرى. ولكن الآلام العميقة التي لم تكن الأشعار التي كتبتها لك، إلا ظلاً باهتاً لها، هذه الآلام، علمتني أن الحياة بأسرها هي تجربة نلتمس فيها التعبير الجميل عن المستحيل أو اللامعقول الذي يكمن في طبيعة الإنسان. والجمال المتيقظ هو هذا التعبير؛ وكم يبعث في نفسي من غبطة أنك الصورة المثلى لهذا الجمال، من أجل ذلك أقول لك دائماً إن الحياة غناء للأشياء. وإيقاع لوجوه الناس، لأنك في كل مظهر من العالم، نفحة سحرية تحمل موسيقى طليقة تشعرني بأنه لا نهاية لشيء على الأرض. وكما أن قوة الحياة

الكامنة في جميع الكائنات، سرمدية لا نهاية لها، كذلك تهب عاطفتنا التي وجدت الجمال، اللانهاية والحقيقة، لكل ما يبدو محدوداً وزائلاً...

كتبت لك اليوم عن نفسي، لأن ابتعادي عنك علمني أن أنظر في كثير من الرثاء لهذه النفس، التي أصبحت الكآبة سمتها وطابع وجودها. السؤال القديم: لماذا توجد؟ لم يعد له معنى؛ بل أصبح همها الوحيد: كيف تستطيع احتمال البعد؟.. وفي غمرة هذا الهم أصبحت تعاني ساعات من الاستغراق العميق الذي لا يوصف، لأنه فوق الفرح والحزن، وأغنى من أعمق الآلام وأجمل المسرات. ومثلما تتلعثم كلمات البوح الساذجة، أمام حقيقة الانفعال الذي يغمرنا بها حنان من نحب، فإن جميع وسائل التعبير تعيا أمام استغراق المحبين. أهي، كما يقول (ريلكه)[1] الدهشة أمام حقيقة الحياة، لأن العاشقين وحدهم يسيرون في دروب الحقيقة؟..

كيف صحتك في هذه الأيام؟ أما زلت في شحوب واضطراب؟ في هذه الأيام الباردة أقضي معظم الأوقات في المنزل قرب المدفأة، استمع إلى الموسيقى وأفكر في عذاب هذا الوطن. وصلتني الصحيفتان، وأشكرك كثيراً على تكبدك مشقة إرسالهما - أثناء مرضك. أرسلت لك في البريد المضمون نوت للفلسفة اليونانية، وقد استعرته من أحد أصدقائي هنا. وبذلك تستطيعين التخلص من دروس (العوا)[2]. ما يتعلق بالأطروحة أستطيع تلخيص ما تريدين، فأخبريني بما أشار به عليك (المقدسي)[3] من مصادر أو مخطط؛ لم يكن إهمالي «العزيزة والتحية الحارة» إلا تمهيداً لهذه البداية في هذه الرسالة، فهل تأخذين عليها شيئاً؟..

عن أية إساءة ماضية تتحدثين؟ وأي حنق؟ أشياء كهذه أرجو أن لا أسمعها منك بعد الآن؛ هل يستطيع هذا القلب الذي أعطاه الحب كل شيء، وطهر جوانحه، أن يعرف الإساءة والغضب، في أجمل ما يملك من ذكريات؟..

---

(١) رينه ماريا ريلكه، كاتب نمساوي.

(٢) الدكتور عادل العوا.

(٣) الأستاذ أنطون مقدسي.

أرسلت إليك في هذه الرسالة قصائد نظمتها في فترات مختلفة، أرجو أن تجدي فيها بعض التسلية، وتغفري أنها لم تزل غير منقحة... تحياتي إلى (سمية)[1] و(شفق)[2] والجميع، أسعد يسلم عليكم جميعاً، ويأسف لعدم عثوره على نوته، كما قلت لك...

المساء، ولا تزال غمامات بلون اللهيب الأحمر توشي جوانب الآفاق البعيدة وأنت إلى جانبي، ليتني أستطيع أن أحمل إليك شيئاً مما تنطوي عليه هذه التنهدات.

تحياتي الحارة وإلى اللقاء

أثم أشـــياء ســـوى أن أرى   الأبعاد تفنى في الغروب الحزين
وأن تقـــول لـــسحب مخـــضلة   مـضت عهود الـورد والياسـمين
وتنثـــر الأغـــصان أوراقهـــا   شـــاحبة، هامـــسة، لات حـــين
وأشـــهد الـــشمس بأطيافهـــا   أشـــعة فـــوق الثـــرى يـــرتمين
وأن تغنـــي الـــريح أحزانهـــا   وفي صـــداها زفـــرات أنـــين
يـــا أوقـــع الأســـماء في مهجتـــي   إنـــي أناديـــك فهـــل تـــسمعين؟

صدقي

(١) السيدة سمية الحفار شقيقة زوجته عواطف.

(٢) السيدة شفق دروزة صديقة أيام الدراسة.

حلب ١٩٥٣/١/١

ع. الحبيبة

أشواق حارة وبعد

الفجر الأول من السنة الجديدة، وأنت في نفسي ينبوع لا ينضب من حنين عاتٍ وحب جديد. لا أعرف لماذا أصبحت لا أحفل بالأعياد والمناسبات، إلا بمقدارٍ ما تكونين أنت فيها، من فرح واحتفال. إن انفعال نفسي في عنفوان دائم، إنه في الذروة أبداً. لقد قضيت ليلة رأس السنة في نشوة بلغت حد الإعياء، في أجواء صافية مليئة، كان كل لحن فيها، وكل ضحكة وكل التفاتة جميلة، ونظرة حلوة، تجدد في نفسي صور حبنا الخصيب، وتعيدك في كل حياتي، النفحة الوحيدة الحية من جمال الوجود. وعندما أطفئت الأنوار، وتعالى ضجيج الناس، كان اسمك الشعري، الهمسة الأولى من أنفاس السنة الجديدة. لقد كنت معي، كائناً أثيراً علي، أحس خفقات قلبه، ولعلي من أجل هذه الرؤيا الجميلة، قضيت ساعات الليل الأخيرة وحدي...

الحياة ثمينة يا عواطف، ثمينة من أجل الحب وحده. والحب وحده هو الذي يعلمنا، كيف تكون الحياة قوية، جديرة بأن نتألم من أجل الاحتفاظ بقوتها، هذه القوة التي ازداد إيماناً يوماً بعد يوم، بأنها البساطة والصدق، والتعلق بالحقيقة، والتي لا تجد غير المعاناة والتضحية، والألم، دعامة لها، لأنها لا تقنع منا أن نحسها ونحياها، نحن فحسب، بل نريد أن تجري في دماء جميع الآخرين؛ وتريد، منا نحن، أن نفتح لهؤلاء طريقها الصلبة الحقة. فكيف لا نشكر للحب أنه علمنا معنى وجود الإنسان في عصر «غير إنساني»؟ وأنه غرس في أعماق قلبي، نبتة الحقيقة الرائعة، بيدك الحانية، يا أعذب لمحات الحقيقة؟...

أخذت رسالتك والبطاقة، وهذا الأريج العبق منك، الذي خلق في جوارحي إيقاع قصيدة، لم أهتد بعد إلى ألفاظها، على الرغم من أنها تعيش في نفسي منذ وصول الرسالة.. موضوعها:: نعم...، هذه الاستجابة الأبدية للجمال الذي هدانا إليه شيء يشبه «النعمة» في تعاليم المسيح، و«الرحمة» في القرآن. الاستجابة أبداً. إنها قصة الإنسان الأزلية، ولا سيما في هذا الزمن الشقي، الذي أورد نفسه المأساة، لأنه لم يعرف الاستجابة للحياة الحقة. من أقدم العصور حتى الآن كان الطريق لتلبية نداء الحياة، تُفتح، تردم، وكان الناس يتعذبون ويقتلون، لأنهم كانوا يشعرون كل حين بالضلال. وطريق الخلاص في يدهم. إنها الحاسة التي لا تفهم غير الاستجابة والارتواء؛ لأنها بذلك وحده تبني للعالم مدداً من الامتلاء، والمحبة والفن، لا تتناوله يد الفناء. من أجل ذلك أصبحت الحرية محور وجود الإنسان، وأصبح رفض «الأمجاد الزائفة» المعنى الإنساني الأصيل لهذا الوجود.

أرسلت إليك من أجل السنة الجديدة، مجموعة أشعار «أنا وأنت» وأرجو أن يكون هذا الكتاب قد وصل إليك، وهو رغم ذيوعه وسطحيته، يحمل اسماً رائعاً، أردت أن يكون شعاراً لنا في العام الجديد، أن يكون العام كله إيانا معاً...

كم تألمت يا عواطف لأنني لم أستطع المجيء إلى دمشق، رغم أنني كنت قد أعددت نفسي لذلك منذ شهر.. لا أعرف كيف اعتذر لك، ولهذا الحنين المضني في أعماق نفسي، عن البقاء هنا، في هذه المناسبة... كيف قضيت يوم رأس السنة؟ ألم يوحِ إليك شيئاً أدبياً يمكن إرساله إلي، لأنني أحب كتابتك كثيراً... ماذا تفعلين في هذه الأيام، ولماذا لا تطيلين رسائلك، وتحدثينني عن جميع شؤونك؟ لقد لفت نظري تغييرك العنوان في إرسال «النوفيل ليترير»[1] فهل من سبب ذلك؟

لقد استعدت كثيراً من النشاط في هذين اليومين، وعزمت على أن لا أشرب، وأن أكتب في المنزل، لأن البرد قد اشتد في حلب كثيراً بشكل أصبح

---

(١) Nouvelles Litteraires أشهر مجلة أدبية فرنسية.

فيه جو المقاهي لا يطاق. (بوشكين)[١] أوشكت على الانتهاء منه، ولا أعرف كيف أعتذر (لسمية) بصورة خاصة عن هذا التأخر فيه، لقد أعدت النظر في ترجمته كلها، وبيضت معظمه من جديد، لأنهم كما قلت لك يصرون على ذكر اسمي، وأنت تعلمين مدى ترددي في نشر أي شيء...

إذا كان بين الكتب «المتواضعة» كتاب غير متواضع، أي يحمل شيئاً من روحك الطيبة، فلا بأس من إرساله، رغم أن ذلك قد يزعجك، لأنني قد لا آتي إلا في عطلة نصف السنة، أي في النصف الثاني من شباط على ما أعتقد..

وبالمناسبة أكرر شكري العميق لإرسالك الصحف الفرنسية لأنني أجد فيها كثيراً من التسلية.

ليتك الآن إلى جانبي؛ الشمس بيضاء هادئة، تغمر بشعاعها المشرق كل مكان، وفي نهاية الأفق تطل زرقة أعمق من تنهدات المحبين. وفي كل شيء لهفة طاغية إلى دفء السماء. أحياناً تكون الأرض متفتحة حية، أشعر معها بأن الزمن كله انتظار ظامئ، لساعة وحيدة في العمر، هي أنت.. وفي غمرة هذا الانتظار تخلق الأرض من جديد في كل لحظة؛ ويتناثر من الألوان والأشياء، اغبرار أبيض دافئ، يشبه الموسيقى الحلوة، أو القبلات أو نسمات منتصف الليل، إن يداً رحيمة تحسر النقاب أمام عيني، عن صور رائعة لجمال العالم، تأخذني إليها في بعض الأحيان، كما تأخذ دروب القرية خطى الخيال إلى المروج البعيدة. في نشوة كهذه، لا أسمع إلا وقع خطاك، ويخيل إلي أن العالم يرتجف غبطة، أمام المودة الثمينة التي يكنها قلبانا، لحقيقة الحياة. فأين أنت الآن؟. وكيف العالم حولك؟ إن العودة إلى ساعات النهار العادية، قاسية مرّة، عندما تكون اليد الرحيمة بعيدة عنا، ويكون سراباً عزاء الخيال..

تحياتي الحارة إليك، وإلى اللقاء

صدقي

---

(١) الكتاب الذي يعده عن الشاعر الروسي بوشكين.

حلب ١٩٥٣/١/٢٨

الحبيبة ع..

تحيات وأشواق حارة، وبعد.

أكتب إليك من زاوية تغمرها الشمس في قلب المدينة، وكل ما حولي حنين إليك ولهفة. أمامي رسالتك الجميلة تحمل إلى أعماق نفسي أرج الحياة. لقد تلوتها مراراً، ولا أعرف لماذا تصورتك من خلالها أحد تلك الطيور البحرية، التي تعيش في المحيط الكبير، والتي يزعمون أنها تختار أكثر الأمواج ارتفاعاً وعنفاً، فتحط عليها لترتاح من لغب النهار؛ لكم يبدو رائعاً من النفس النبيلة أن لا تلتمس الراحة إلا في أعنف المشاعر وأشدها إرهافاً! ولكن الأسى يجب أن لا يعرف إليها سبيلاً، وقد كنت ألتمس في كلماتي الماضية، شيئاً من الشجاعة منك. فلماذا أثارت في نفسك الطيبة كل هذه الأحزان والمخاوف؟ أنني اعتذر إليك إذا كان ثمة مجال للاعتذار، فلمن أتوجه، إن لم تكوني أنت، كل ما في الحياة من جمال وثقة وحنان؟..

لقد وعدتك أن أرسل إليك القصائد التي ترجمتها عن (فيرلين)[1]، ولكن طابعها الحزين، وما فيها من ابتهال مسيحي خائر، منعني عن إرسالها؛ ويبدو لي أنني كنت على صواب. لسنا بحاجة إلى عزاء أحد، يا **عواطف**، حتى ولو كان أعمق شاعر على الأرض، استطاع أن يعبر عن آلام الحب ويغنّي أحلام القلوب الخافقة. أن نلتقي: ذلك هو المحور الذي تدور حوله جميع انفعالاتنا، وكل ما تمر به نفسانا من مخاوف وأحزان. وكم كانت رسالتك الأخيرة، شاعرة بهذه الحقيقة! إنني أعدك بانتظار مليء مغتبط، فهل تعديني بمثله؟ وهل تكون رسائلك بعد اليوم أقل اضطراباً؟

(١) بول فيرلين شاعر فرنسي.

لقد حدثتني (فردوس)[1] عن صحتك وسررت كثيراً بأنك في صحة جيدة، وكم كنت أود أن أسألها عن كل شيء يتعلق بك، حتى عن أحاديثك وسمات وجهك الوديع، وما ترتدين من ثياب؛ وقد أخذت «هيلدرلن»[2]، ولا أعرف كيف أشكرك عليه، وهو الآن إلى جانبي، إن نفحة من شيء ثمين مجهول، ترف على كل ما تلمس يداك؛ وكم أجد غبطة في أن أردد، أمام أشياء كهذه، كلمة (غوته)[3]: «... هنا مرت يد الجمال..». فثمة ألفاظ بسيطة، يا عواطف، تحمل كل ما في الحياة من غنى وروعة. إن أثمن ما في الحياة، هو ما يتلعثم أمامه الفم، وما يتردد في الجوانح، كما تتردد غمغمات لحن عبقري في صدر فنان. هل تصغين إلي عندما أردد اسمك العذب في كل آونة من الزمن!..

حلب في هذه الأيام دافئة مشرقة. أقضي نصف النهار في التدريس، وأجد فيه متعة متعبة. لأن ضعف الطلاب في الفهم يلفت النظر. إنه جيل مرصود. وفي كثير من الأحيان أعذر له كل عقم وبلادة، لأن المعرفة على ما يبدو ليست قضية جوهرية في بلادنا. إن الحقيقة هي القضية، والحقيقة هي الحياة. إنهم يريدون أن يعرفوا الحياة، أن يسيروا بهذا القلق المتفجر في عيونهم الحية، ونفوسهم المتمردة، إلى شاطئ هادئ أمين. فهل يُلامون إذا رفضوا كل ما هو اكتساب ومعرفة؟ وفي الليل، أجلس قرب المدفأة، كما تفعلين، وأقرأ. وعندما تكون الليالي مطيرة عاصفة، أؤلف أقاصيص عاطفية، عن أناس بسطاء يتألمون ويفرحون في مكان ما من الأرض، ودون أن يسألوا: لماذا؟ وقد نظمت البارحة قصيدة لك، لم أنقحها بعد، عنوانها: هناك. فهل تريدين أن أرسلها إليك، مع العلم أنها هادئة فرحة؟..

لم أستطع الكتابة إلى سمية، لأنني كنت أرى نفسي في كل مرة أحاول الكتابة، جدياً أكثر مما يجب. وقد نظمت لها قصيدة هزلية، وسأرسلها غداً مع رسالة.. ماذا تقرئين أنت؟

---

(١) ابنة خال المرحوم صدقي.

(٢) فريدريك هيلدرلن كاتب وشاعر ألماني.

(٣) أديب ومفكر ألماني.

ستبدأ عطلة نصف السنة، في آخر شباط، ومدتها أسبوع فقط، وسيكون أمامنا فرصة أخرى في نيسان، وسوف أحاول أن آتي قبل الفرصة الأولى بأيام، لأنني لا أدرّس إلا صفوف الشهادات، والطلاب فيها لا يُجرون فحصاً.؛ وسأكتب إليك عن هذا؛ ويجب أن أراك في صحة جيدة...

منذ أسبوع، أقرأ أنا وسليمان، كثيراً من الشعر العربي القديم، ولا أعرف لماذا تتملكنا نشوة غريبة، عندما نمر بتعابير حلوة، أو معانٍ موقّعة ومبدعة، وترتسم صورتك أمامي كما لو أنها شيء منك. إن سليمان هو الصديق الوحيد هنا، الذي ما يزال يحتفظ ببساطته وطفولته، رغم أنه قد ابتعد عن نظم الشعر كثيراً: وقد حدثته عنك، دون أن أشير إلى شيء مما بيننا، فهل ثمة مانع من هذا؟. وقد عدنا منذ مطلع السنة إلى تبادل القصائد الهزلية، لأنها أحسن وسيلة للتسلية، في هذا الشتاء القلق، وأرسل إليك في الورقة التالية، مقاطع لي من قصيدتين طويلتين، أرجو أن تجدي فيها بعض التسلية...

الغروب يقترب إلى كل ركن من المدينة، ويسكب في جوارحي من جديد، حنيناً لا يموت. أين أنتِ في هذه الساعة؟.. تحياتي إليك، وأشواقي الكثيرة وإلى اللقاء.

صدقي

حلب ١٩٥٣/٢/٥

ع.. الحبيبة

تحية حارة وبعد

لقد أصبحت انتظر رسالتك انتظاراً كله لهفة، لأن شعوراً بالوحدة يغمر نفسي في هذه الأيام، ويلقي على كل شيء حولي طابع الحنين إليك. والحب الذي لا يعرف غير الجموح العاصف. وقد أصبحت خواطري وأفكاري، عنيفة صارخة، تجتاح كل ساعة أمر بها من ساعات الهدوء، وتنسج لي آفاقاً ملونة غريبة، كل أفق فيها جدير بأن يكون مسرح حكاية عاطفية ثائرة، يضحي أبطالها الوهميون بحياتهم، في سبيل خفقات ساذجة عرفتها قلوبهم ذات يوم.. وفي معظم الأحيان، تصبح الأفكار صوراً حية، يتنسمها الحس، كما يتنسم عبير الخلود، وتمتلئ منها النفس، كما تمتلئ من الإيمان، لأنها صور تحمل لونك، ونفحة جمالك النقي. ومرة ثانية، يبدو لي، أن الخواطر لا شأن لها، إن لم تصبح موضوعاً للحاسة، فتكتسي بالشذى واللون، وارتعاشات الظل والنور، وأن كل ما يقدمه الفكر والتأمل للفلسفة، من حقائق الكون، إنما هو وهم وضلال، أمام لمحة حية من الحقيقة، تهبنا إياها تجربة العصب والدم... فكيف أستطيع أن أشكر لك حبك الجميل، الذي حرر نفسي من عري الأفكار وصقيعها، وأضفى على حديقتي الجرداء، رداءً من النضارة لا يعرف الذبول؟...

في الحب، تفتح النفس كل جوارحها للعالم، لأن من تحب جاء من هناك. أنامل مثل الموسيقا، تدعونا إليها، وترينا الحياة كلها، ذروات أبدية الجمال، نجد في صعودها أعمق مسرات الوجود: المسرات التي لا تُفسر ولا تُعقل لأنها فوق منطق الحياة نفسها: منطق اللذة والنفع. أحياناً أجد نفسي معك في أعلى ذروة، نرد ينبوعاً ماؤه من الأزل، ونطل على بزوغ فجر لا

تعرف الأرض بعده الظلام... ليس ذلك حلماً، بل اللغة النبيلة التي يعبر بها الحب، عن ظمأ النفس إلى الحقيقة، إلى كل ما هو حياة وصدق، تلك هي قضية الإنسان في كل حياته: أن يتلمس الأنامل الغضة التي تدعوه إلى الذرى، والأنامل مرصودة بحادثة الحب، سيان في ذلك الأنوثة السمراء التي توقظ في نفوسنا سذاجة الطفولة، وعنفوان التحرر، أو الوجوه المعذبة التي تهز كياننا بحب التضحية والبذل. المهم أن نؤمن أبداً بأننا على شاطئ فجر لا ظلام بعده. إن ثقة كهذه بقوة النفس الإنسانية، لا يغرسها في القلب، إلا جمال كروحك الثمينة.. فهل ألام إذا جمح بي الخيال إلى الاعتقاد - ونحن في عصر هو الحضيض - بأن الإيماءة تجدي، وأن الفجر قريب أبداً..

قرأت رسالتك الأخيرة مراراً عديدة، وفي كل مرة، كنت أضيع في أمواج عبقة من روعة حنانك، ودفء عاطفتك. لم لا تطيلين في الكتابة عن نفسك، يا عواطف، إنني أحب ذلك كثيراً، وقد قلت لك هذا مراراً. لقد تحدثتِ عن شعري، ولا أعرف لماذا أشعر بأنه لا يزال في البداية، لأنني لا أقيس تجربتي فيه بما ينشره «شعراء» هذه الأيام، بل أطمح - في شيء من الاعتداد - إلى أن يكون قاعدة لشعر عربي حديث، يلوّن العبارة العربية المشرقة بلون الشارع والحاسة، ويهب تراثنا الغنائي جانباً من عمق التجربة؛ اعتذر لك عن هذا «الغرور»، ولكنني أحدث نفسي به أحياناً، ومن أجل ذلك أحدثك به.

ما تشعرين به من ضعف بعد الكتابة، أشعر بمثله. وكثيراً ما أتساءل عن سر هذه الكآبة التي تشبه الانخذال؛ كم نشترك في مشاعر خفية مجهولة، يا عواطف... أحياناً أتوهم لهذا الضعف سبباً هو أن الكتابة شيء قليل قليل جداً، مما نريد أن نحدّث به من نحب؛ أو أن من الحزين أن يقدر للرسالة ما لا يقدر لنا، من أسباب الحنان والقرب؛ وفي بعض الأوقات، أقول لنفسي: لعلها الكآبة التي تحرك جوانح النفس كلها، حين نتساءل أمام كل قضية عظيمة من قضايا وجودنا الإنساني: لماذا؟..».. كائن جميل هو الحب، يصبح إيانا، ويعلمنا العبادة حتى الموت، ويفجّر في أعماق نفوسنا ينابيع تجري فيها دماء المطلق، فلم لا نعرف: لماذا الخوف والألم، والموت، وخفقات القلب الذي لا يعرف الهدوء؟...

إنني استمع كل ثلاثاء إلى الموسيقى، لكي نلتقي فيها معاً على الرغم من أنها تكون أحياناً لغير (سيبليوس)[1]. ولا أعرف ماذا يصيبني أحياناً، فلا أستطيع القراءة، أو إتمام ما أكتب، خلال أيام طويلة. على الرغم من أن صحتي جيدة، والتدريس أصبح بالنسبة إلي عادة مسلية... أهو تحقيق لما تعاهدنا عليه من انتظار مليء.. إنني معك، فما نشعر به فوق إرادتنا وقد تكون حكمته أقوى منا، قد يكون كل ما في حياتنا من معنى...

لقد أرسلت لسمية رسالة مطولة، أرجو أن تكون قد وصلت، وأرسلت إليها قصيدة للتسلية، لم تنته بعد، وسوف أرسل لها رسالة أخرى غداً؛ أرجو أن تكون في حال حسنة؛ بلغيها تحياتي. وبالمناسبة، هل تغلق الجامعة أبوابها أثناء العطلة؟

القصيدة التي حدثتك عنها، رأيت أنها لا تزال بحاجة إلى إعادة نظر، وزيادة أبيات، وسوف أرسلها لك، في الرسالة القادمة.. أطيلي رسائلك يا عواطف.

تحياتي إليك وكل حبي.. وإلى اللقاء القريب.

صدقي

(١) موسيقار فنلندي شهير.

حلب ١٢/٣/١٩٥٣

الحبيبة ع...

تحية حارة وبعد

هذه رسالة عتاب، أكتبها إليك في إحدى الساعات الحزينة التي لا يملك القلب فيها، إلا أن يتوجه باللوم لمن كان سبباً في أحزانه، كما يتوجه به إلى نفسه. أقول لك هذا، لأنني أحب البساطة والصراحة في كل شيء. ومن أجل ذلك لا أعتذر لك عن الأثر الذي قد تتركه في نفسك، فإذا لم يعلمنا الحب عادة الصدق والحقيقة ما الذي يبقى لنا؟..

لقد تركتك في دمشق، وأنا في كآبة تشبه المرارة؛ سببَ ذلك نوع من الاغتراب شعرت به أمامك، خيل إلي معه، أن في نفسك أشياء تجاهي تكتمينها، قد تكون على جانب كبير من الخطأ والوهم. وأنت تعلمين أن ما أشعر به أثق به دائماً، لأنني كما قلت لك مراراً لا أحب الفكر واستنتاجاته السقيمة، بل ارتبط مباشرة بالمشاعر العفوية العميقة التي تتركها في نفوسنا الحوادث، من دون مبرر منطقي أو سبب - ألا ترين أن ما يحسه القلب هو فوق كل شيء؟ - وقد كانت ثقتي بك - ولا تزال - مبنية على شعور كهذا ولكنه شعور من إيمان...

لقد بدوتِ في هذه المرة، غامضة مترددة، تلجئين إلى منطق الناس وأسلوبهم، كما يلجأ الخائف إلى سلاح يتذرع به. وأية خيبة أن يكون هذا الخوف ناشئاً عن المصدر الوحيد، الذي قدر له أن يكون الملجأ الأمين لك من جميع آلام الحياة ومخاوفها؛ عاطفة حبك؟.. لقد ساءلت نفسي في كثير من الحيرة: كيف يتاح لي أن أعيش بطبيعتي مع الجميع، أن أكون «إياي» حتى مع أشد «الآخرين» إنكاراً لروح الحب وجماله، وتقابلين أنت، حتى الكلمات العابرة، بروح غريبة من الجد، مع أنك الكائن الوحيد الذي كان يجب أن تكون نفسي بطبيعتها عارية أمامه أبداً، من كل قناع.. ولن أردد لك ما قلتِ وأشعرني بذلك الاغتراب، لأنك تذكرينه جيداً، ولكنني لا أعرف لماذا

ضحكتُ كثيراً من هذه الروح الجدية التي أملته عليك، لأنك أنت التي كنت تقولين لي: يجب أن نحذف «واو» العطف هذه من أنا وأنت.. وكنت تقولين من قبل «ألا ترى أننا أصبحنا كالأطفال!». لكم كنت أعتز بهذه الكلمة، أن يكون الإنسان طفلاً سليم الطوية متفتحاً للحياة، في بيئة هرمة ينخر فيها سوء الظن والأنانية؛ إن هذا شيء من معجزة حقة، لا تصنعها إلاَّ يد الحب. والحب وحده يهب القلوب براءة الأطفال، حتى في «شر» نزعاتها، لأن من تحب يكون عندئذٍ إياها، يكون هو ذاتها الحقيقية، وكل ما فيها من نوازع ورغبات. فكيف أشعرتِني بأنني أهنتكِ، وأسدلت بيننا ستاراً من الأحزان؟..

ماذا تظنين أنني أريد منك، يا عواطف، وماذا تريدين؟ كثيراً ما كنت أسمعك تقولين: وماذا بعد ذلك؟ أو أين نحن؟ وقد أجبتك في قصيدة ذات يوم على كل تساؤل، ولا أزال أحب أن أحدثك ملياً عن هذا. في حياة الحب، كل آونة هي سرمدية كاملة، لا قبل ولا بعد. العين مخضلة بدموع الوجد، لا تستطيع أن تتطلع إلى أبعد من وجه الحبيب، الذي هو أبداً أقرب إلى العين من إنسانها. والقلب مرتعش أبداً بهمسات الحب، كأنه في غمرة حلم سحري. والأفكار والخواطر، جميعها، صور شعرية جميلة، تستمد ألوانها البراقة وإشراقها من جمال من نحب، وطيبة نفسه. ومن يستطيع عندئذٍ أن يفكر بالزمان والأمكنة؟ من يستطيع أن يقول: هذا خير وهذا شر! من يستطيع أن يتطلع إلى الشاطئ وقد أسرته غمرة الأمواج، وحوّله توهج الآفاق إلى إشراق مطلق؟. ليس هذا شعراً، يا عواطف، إنه حقيقة وحياة. عالم العاطفة لا منطق له ولا استقرار. وكل ما فيه، حتى أحزانه العميقة، ليس إلا استغراقاً جميلاً ونشوة.

ولكن الناس، يريدون منا كل شيء، بمقدار. لأن الأنانية والنفع هما كل ما في «فلسفة» الناس، وحكمتهم «الفذة». إنهم يبحثون أبداً عن التخوم والنهايات والنتائج؛ لأن «إنسانيتهم» بجوهرها الطليق المبدع، تتعبهم في أكثر الأحيان. لأنهم لا يعرفون «الحب»، ويبغضون الجهد الرائع الذي تكلفهم إياه حرية نفوسهم، وخفقات قلوبهم. كل أرض عندهم لها حدود، لأن الأرض التي ليس لها حدود، تُتعب الأرجل الكسلى، وكل تجربة في الحياة لها نهاية.

لأن خضوعهم لعالم الضرورة التي تخضع لها كائنات الطبيعة، قد علمهم ذلك، لأنهم يرتعدون، منذ البدء، من النهاية العظمى: الموت. ولكل شيء عندهم نتيجة، تصوري هذه الحماقة: الجمال، الحب، الشعر، والألحان الجميلة، كلها وسائل عارضة، من أجل شيء آخر، من أجل نتيجة يتوهم الناس أنها كل شيء لأنها تحمل لهم النفع، كما يتصورون، مع أنها في الواقع، الحسرات والعودة الحزينة إلى انحلال الأنظمة والقوانين، في المجتمع والطبيعة، إلى «المقادير» التي تلوث كل جدول مترقرق صافٍ...

والناس، يا عواطف، يعيشون فينا، لسوء الحظ، ولكن الحب جاء إلينا منقذاً ومحرراً، فهل نقاوم إرادته النبيلة، بدلاً من أن نبتهل إليه، ونذرف أمامه دموع الشكر والامتنان؟... إن كل ما عرفناه من آلام - هي من طبيعة الحب - إنما هو ثمرة لشعورنا بأننا نقاوم هذه الإرادة. ولعل هذه اللهجة اللائمة، التي أتوجه بها إلى نفسي وإليك، أن تكون شيئاً من هذا الشعور. هل أتعبنا الحب بتعاليمه المقدسة؟ وأعلن قلبانا عجزهما عن خفقات الوجد العنيفة التي تأخذ كل شيء! ألا ترين ذلك، كما أرى، مبعثاً للحزن والقلق؟.. لا. إن إيماني بعظمة القلب، يزداد قوة يوماً بعد يوم، وتقديسي لتحرير الحب، شيء أصيل في طبيعتي، لا يزول. فإذا لم يجد هذا الملاك الوديع، الذي سميناه «الحرية» وعشناه في عاطفتنا وانفعالنا، وآمنا به كأجمل معنى للحياة، إذا لم يجد هذا الملاك الذي سميناه أيضاً الحب، مأوى له في جوانحنا المتيقظة الحنون، كيف تتاح لنا الحياة الطيبة إذن؟..

لا أعرف كيف سوف تتلقين بعض ما في هذه الرسالة من جد وهم. ولكن ثقتي بأنك تعرفين جيداً، هذا الذي يكتب إليك، هو الذي دفعني إلى أن أكون جموحاً - كعادتي في كل شيء -. ومرة ثانية أقول لك، إذا لم أكن كذلك معك أنت، فمن يعرفني؟...

تحياتي الحارة وأشواقي، وإلى اللقاء.

صدقي

حلب ١٩/٣/١٩٥٣

الحبيبة ع،

تحية حارة وبعد

تلوت رسالتك مراراً في حب لا حدود له، وكنت قلقاً أشد القلق بسبب رسالتي الماضية. أحياناً كنت ألوم نفسي على مخاطبتك بتلك اللهجة الجدية، الدخيلة علينا معاً؛ فالمرء قد يؤنب نفسه أحياناً، ويتبرم بوجوده، ولكن لا حق له على الإطلاق، أن يمس الجمال والحب، بشيء من هواجس نفسه وخواطره. وتارة كنت أراني مرغماً على كل شيء، كنت أقول: يجب أن يكون كل ما بيننا صافياً بسيطاً، لا يشوبه ما سميناه «منطق الآخرين»، وما فيه من انطواء وغموض، وإذا لم يحتمل أحدنا مثل هذه الكلمات، مهما تكن قاسية، من الآخر، فأين يتوجه بهموم قلبه؟ وكنت انتظر منك لوماً أشد؛ لأنني على ما يبدو جموح أرعن، في كل شيء، حتى في همسات العتاب لأحب كائنٍ إلى نفسي، فليتك فعلت ذلك؟...

لقد شعرت بغرابة موقفي، عندما ودعتك في تلك الليلة الشتائية الماطرة، ولم يكن ذلك من غضب أو قلق، بمقدار ما كان صادراً عن نفس، تمزقها آلام الابتعاد عنك، في لحظة كنت فيها في أمس الحاجة إليك، لكي نتحدث ملياً على الأقل، ونبدد هذه الأمواج الكدراء من سوء التفاهم، التي غمرتنا في هذه المرة، لسبب مجهول لا معنى له؛ وأردت الاتصال بك في اليوم التالي، ولكنني علمت أن الهاتف لن يتيح لنا إلا الشكوى العابرة، التي قد تكون أشد حزناً من الصمت. وعندما كتبت إليك، كنت ما أزال في الحالة التي تركتني فيها ذاك المساء، كأن كل شيء قد مُحيَ من الوجود، إلا ما يتصل بهذه العاطفة التي بلغت حداً من الإرهاف، على ما يبدو، أصبحت لا تقنع معه إلا بكل ما هو مشرق كالحقيقة، عاتٍ جبار كالمطلق. ولمَ الحياة، إن

لم يقترب بنا الحب، يوماً بعد يوم، من عنفوانها وجمال بساطتها، وروعة غبطتها الثمينة، إن لم يشعر كلانا بأن كل ما في النفس الإنسانية من إيمان وثقة ونبل، إنما هو في هذه القصة البسيطة التي تأخذ الوجود بأسره، والتي نسميها ارتباط قلبين، والتي يتمزق فيها كل قناع عن وجه الطبيعة الإنسانية!

من أجل ذلك، كنتُ قاسياً على نفسي أكثر من قسوتي عليك، عندما كتبت لك؛ فأنت تعلمين حق العلم مبلغ أحزاني الكبيرة، بسبب أقل ما تشعرين به من ألم، وتعلمين أيضاً شقاء روحي عندما تُضطر لأن تلزم الجد والتحفظ، معك بصورة خاصة، أنت التي أود أن أكون أمامها، بكل وجودي، ككتاب مفتوحٍ، لأنني أريد أن أكون معها في كل آونة من الزمن. فهلا غفرتِ لي ذلك اللوم الذي كان بقية شريرة، من تلك الأمواج الكدراء؟ وهل أستطيع أن أعتذر لك عن تلك الجراح التي سببها لك؟ إن في رسالتك نفساً تتألم بسبب كلماتي، فدعي هذه الآلام، يا عواطف، ولا تتحدثي بمثل هذه اللهجة المعذبة، بعد اليوم، لأنها عذاب لي أنا أيضاً، عذاب لا عذر له إلا أننا نعبر به معاً، عن مقدار استعدادنا للتضحية في سبيل حبنا. ألا ترين معي أن هذا الحب الجارف، لم يعد بحاجة إلى مثل هذا التعبير وهذه البراهين؟ ألا ترين أنه قد آن لنا معاً، أن نطوي صفحة التجارب والآلام، لكي نعيش الحب، حقيقة غنية سعيدة، في تجاوبنا مع جميع مظاهر الجمال والشعر والمسرة، في العالم؟ في بعض «الأحيان»، كنا نبدو، وكأننا معاً، بحاجة إلى عزاء وسلوى، بسبب عاطفتينا، كأننا نقترف جريمة، أو نهوي في غور من الكوارث، ذلك رأي كل مجتمعٍ بليدٍ في نزوات القلب، وتطلعه إلى ما في الحب من حرية وبساطة، فهل أستطيع أن أطلب إليك، أن لا تعود تلك «الأحيان»، إلى رابطتنا الثمينة، وأن نكون نحن مصدر العزاء والسلوى، لجميع هؤلاء الذين يعيشون حولنا، بوجوههم الحائرة، وعيونهم الظامئة، وكلهم خوف وهمّ، لأن الحب لم يرشدهم بعد إلى ما في الوجود من إيقاع عذب، وروعة لا حدود لها. إنني سعيد كل السعادة، يا عواطف، بحبك، فخور بنبل نفسك، ولن أبرر لنفسي أية سمة من سمات الحزن، بعد اليوم، إن لم يكن بسبب بعدك، فهل

تعديني أن يكون قلبك، كما هو بطبيعته، ينبوع الفرح والغبطة، حتى لأشد ساعات الحياة هماً وضيقاً؟...

النور لن يُطفأ ولو غمرته بحار الأرض. إن شيئاً خارقاً، فوق الإرادة، يذكيه ويُمدّه أبداً بجذوات لا تخبو، من شرارة إلهية، ولم أحدثّك في تساؤل، عن أن الحب قد أتعبنا، وعن أحزاني الماضية، وخوفي من أن قلبينا قد عجزا عن خفقات الوجد، وعن الغموض والتردد اللذين توهمتهما فيك، لم أحدثك عن كل هذا، إلا في غمرة عتاب بسيط، لن يترك أثراً فينا، لأن الحب نفسه لا يرضى أن يبقى في القلوب المحبة، في ساعة ضعفها، أي ظل للوهم. يجب أن تكون في كل لحظة طاهرةً من كل ما هو دخيل عليها، فهلا اقتنعتِ بأن تلك الأشياء، كان يجب أن تقال، وقيلت، لكي تذهب أبداً من دون عودة؟. وهلا اقتنعتِ إلى جانب ذلك، بأن «المحاولة» التي أشرتِ إليها في نهاية الصفحة الأولى من رسالتك، لم تكن على الإطلاق سبباً في شيء، لقد كانت بالنسبة إلي حادثة عابرة جداً، وتافهة، ولم أكن لأشير إليها على الإطلاق، لولا الأحزان التي بدت عليك إذ ذاك، وقد لحظتِ الكثير من انكساري لأنني لم أستطع أن أكشف لك عن حقيقة نفسي آنئذٍ، وأقنعك بأنني لست من «الآخرين»..

عواطف، ليمضِ إلى عالم الناس، كلُ هم دخيل بعد الآن، إن الصراحة والبساطة أنبل ما فينا. لقد ساءني كثيراً مرضك، ولن أغفر لك إهمالك لصحتك إلى هذا الحد. رددي أبداً أن الحياة ثمينة وجميلة، وأن الوجود، بكل ما فيه، جدير بأن نحياه، ونهب نفوسنا، بكل ما فيها من إحساس وتفتح، لكل لحظة منه، ليست القضية مجرد انفعال وتنهدات، بل تجاوب سعيد مع مفاتن الأرض. أتكون الأطيار والورود، أبرع منا في التمتع بزرقة السماء، ونور الشمس، وأنسام الغروب؟. أتكون الكائنات الوهمية التي تذكرها الحكايات والقصص، والتي تعيش في جمال وسعادة وبساطة، وتعرف كل متع الحياة العميقة، أيكون هؤلاء الناس الذين تنسجهم أخيلتنا، أكثر قدرة منا، نحن الذين من عالم الحقيقة، على معرفة سر الحياة؟..

لكم كنت أود، أن تحدثيني عن جميع شؤونك (الخاصة)، لأنني أعرف ما لمتاعب الحياة اليومية وهمومها، من أثر في النفس، إذا لم يقابلها الإنسان بروح رياضية طفولية. إنني أعرف جيداً هموم المنزل - رغم أنني لم أعش إلا قليلاً في جو عائلي - وأعرف أيضاً أنني قد أكون مفيداً لك في كلمات تشجيع على الأقل - كما أفعل الآن - فتحدثي إلي إذا كان ثمة لزوم لذلك...

أما أنا، فأطلب إليك، أن تبددي كل ظل للهم والاضطراب في نفسك، وأن تثقي، أكثر من أي وقت آخر، بأنني أبداً ذلك القلب الذي لا يخفق إلا من أجلك، والذي لا كبرياء له، إلى الأبد، أمام فتنة عينيك.

تحياتي وأشواقي، وإلى اللقاء.

أمن الحق أن أراها مع الناس وأخشى لقاءها وتراني

ويعود الفؤاد منكسر الروح وتندى بدمعي المقلتان

يا رعاها الغرام، أحمل وحدي كل ما في الغرام من أحزان.

صدقي

حلب ١٩٥٣/٤/٢٣

الحبيبة ع..

تحيات حارة وبعد

لم أكتب إليك خلال هذه الفترة الطويلة لأنني كنت في كل يوم أتوقع أن أسافر إلى دمشق في اليوم التالي، بسبب انقطاع الطلاب عن المدرسة هنا، ولكن المعارف أبلغتنا أخيراً أننا لن نستطيع السفر قبل أواخر الشهر، ولذلك لابد من قضاء أسبوع أو أكثر في هذه المدينة اللعينة، رغم أنها في هذه الأيام الربيعية أجمل منها في أي وقت آخر، ولا سيما عند الفجر، الساعة التي أكتب إليك فيها الآن، ومسحة من إشراق ذهبي أسمر، تغمر كل شيء حولي، وتزرع سمات وجهك الرقيقة المرهفة، على رحاب الآفاق الموشاة بأجمل السحب. لقد كانت هذه الفترة طويلة جداً بالنسبة إلي، وقلقة إلى أبعد حدود القلق. وعلى الرغم من أنني كنت أكتب كثيراً، فإن انقطاع أخبارك عني كان يوهمني من جديد بأنك مريضة أو مضطربة. فهل أنت كذلك؟ أما أنا فقد كنت - ولا أزال - مستغرقاً في كتابة صفحات تعرفين بعضها، سميتها: الناس والأشياء، وفي كل يوم يفتح لي انفعال نفسي وتجاوبها مع قضية الشعب وقضية الحاسة التي تصنع الأشياء، يفتحان لي آفاقاً جديدة من الحقائق البسيطة عن الحياة. إن حقائق العالم تنتزعنا انتزاعاً من قلب مسراتنا وهمومنا، وتعلمنا أن المهم ليس أن نعرف، بل أن نعطي كل كياننا لما نعرف، للحقيقة...

ماذا تفعلين في هذه الأيام، وهل تستعدين جيداً للفحص، أرجو أن تفعلي ذلك. ولماذا لم ترسلي إلي الصحف الفرنسية؟ لقد كنت أنتظرها... لم أرسل شيئاً (لسمية)[١]، ولا دفتر (ابتسام)[٢] بسبب توقعي المجيء، كما

---

(١) السيدة سمية الحفار شقيقة زوجته.

(٢) السيدة ابتسام الحفار شقيقة زوجته.

قلت، فاعتذري لي منهما... مع التحيات بالطبع. أما صديقنا العتيق (أفلاطون) فقد فعلت ما قلت لي من أجله، وبالمناسبة قرأت دراستك كلها وسررت كثيراً لجمال كتابتك، ليس هذا على سبيل التشجيع.. هل تلقيتم شيئاً من (الشريف)[1]؟ إنه لم يكتب إلي بعد. اعتذر عن قصر هذه الرسالة، لأنني كتبتها وأنا ذاهب إلى المدير لمراجعته بشأن السفر، ولكن من دون جدوى، اكتبي إلي عن صحتك وأحوالك، تحياتي إلى الجميع وأشواقي الحارة إليك وإلى اللقاء القريب.

صدقي

---

(١) الأستاذ فاروق الشريف.

حلب ١٩٥٣/١٢/٢٨

الحبيبة ع..

تحيات حارة وأشواق

أكتب إليك بمناسبة العام الجديد، وكل ما نفسي وما حولي لهفة ملتهبة إليك، وحنين عظيم. لقد أصبح الزمن كله يحمل لونك الأسمر، ودفء أنفاسك، وأصبح الوجود بأسره شيئاً من سمات محياك الجميل، ومن تألق نظراتك، فكيف يكون الزمن والوجود أمامي، في مثل هذه اللحظة وهذا المكان، وأنت معي ملء الروح. لقد كنت أريد أن نشهد معاً بداية الطريق في العام الجديد، ولكن ظروفاً قاسية ستحول دون ذلك، فلنتأمل معاً عن بعد، أضواء البيوت، وغمغمة الشوارع البعيدة، وانحسار الليل الهادئ عن فجر طليق، وجميع الأشياء في العالم وهي ترتعد حياة مع دقات الزمن الخفية. ففي ذات يوم سيكون من الرائع أننا رأينا كل هذا، ونحن في غمرة حب كالخضم، لا نهاية لأمواجه، حب أنت كل ما فيه من جمال وحياة، يا عواطف، وأعذب ما يضم من عاطفة وشعر. اكتب إليك من خلال الثلوج والغيوم الناصعة، والعواصف المنطلقة في رياح الشمال؛ وكل جوارحي تنطلق إليك، محمومة عاتية؛ إن كياناً أيقظ فيه حبك النقي جذوة الروح، لن يعرف الصقيع، وقلباً تحركت فيه صورتك النبيلة، لن يكف عن جنون الحب. بل إن إيمانه ليزداد عنفاً يوماً بعد يوم، إيمان حار بسحر هذه الكلمة: أن نكون معاً... فهل يقدر لنا، وهل نحن جديرون به؟ لقد اغرورقت عيناي بالدموع أمام الصورة التي أرسلتها أخيراً، لكم كنت شاعرة في اختيارك هذا الجدول العميق الانسياب، رمزاً لحبنا، يحف به الجليد، ولكنه رغم الوحشة والإهمال يتبع طريقه الطيبة، في معزل عن العالم. هل قُدِّر الاغتراب على كل ما هو

صادق وعنيف في الوجود؟ يحزنني أنك ما زلت متعبة، وأحياناً ألجأ إلى الابتهال من أجلك، كما يفعل الأطفال، ولكنه موجَّه إليك وحدك لكي ترفقي بنفسك، وتطردي بأحلام روحك الجميلة، كل ما يسببه لك الشتاء والبعد من هم وألم. تسألين لماذا أسير في عواصف الثلوج، وأكثر من السهر، ومن الحديث عن الوجد، وهل أعرف أنا لماذا؟ ألا ترين أنه لا مبرر ولا سبب لما يمليه علينا منطق القلب الملتهب؟. ولكنني الآن في حال حسنة؛ اعمل كثيراً واقرأ كثيراً، وأفكر فيك أكثر. إن أجمل أيام الحياة هي فترات الاستغراق والضياع، فكيف إذا كانت الحياة كلها ضياعاً في فتنة سمراء هي أنت، وقلب نبيل هو قلبك. تحياتي الحارة مع حبي الأبدي وإلى اللقاء القريب.

صدقي

دمشق ١٩٥٩/١/١٥

الحبيبة ع...

قبلات كثيرة لك ولألمى..

تلقيت رسالتك مساء البارحة. وكنت أنتظرها منذ اليوم الأول لسفرك، فقد شعرت بوحشة غريبة عندما تركتكما في المطار، وخيل إلي أن كل شيء حولي قد أصبح باهتاً لا معنى له. ولم أكن أتوقع مثل هذا الشعور، فقد كنت أعرف أننا سنلتقي بعد أيام. ولكن هذه الأيام بدت لي طويلة ثقيلة، يبدو أن ما يرتبط به القلب هو الذي يجعل الزمن رشيقاً جميلاً، ويضفي على الأشياء سحراً وألفة. لقد سرني أن السفرة كانت مريحة، وقد أفرحني كثيراً أنك كتبت التفاصيل عنك، وعن ألمى، فقد قرأتها أكثر من عشرين مرة وأسعفني خيالي الواسع بتصور شعري رقيق، آمل أن تجديه قريباً في زاوية الغزل من «الجسر»[1].

تغمرني هذه الأيام مشاعر غريبة عن معنى الحياة ـ هذا التساؤل القديم الذي أصبح يجري في دمي ـ ولا أعرف لماذا تزيدني الأيام يقيناً بأن الجواب الوحيد هو قصة القلب البشري. أجل؛ إن العاطفة هي أثمن ما نملك في الحياة، العاطفة الحارة، التي وجدت رمزها الحي في وجودك أنت، يا عواطف، وإذا كان لي أن أعرف من الانفعالات ما لا سبيل إلى تبريره، فذلك لأن القلب يطلب كثيراً في كل حين. لكم تتسع أمامي هذه العبارة الفذة التي قالها (هيلدرلن) في ساعة من الوجد الإلهي، وتبدو الدستور الأزلي الوحيد لحياة الإنسان. لقد أصبح الناس في عصرنا أقزاماً، تخيفهم الأحرف الكبيرة لأن نفوسهم هي أجبن من أن ترى في الحب الكبير مصيرها

---

(١) الجريدة الهزلية التي كان يصدرها على نسخة واحدة بخط يده، ثم أصبح اسمها جريدة الكلب.

الوحيد. أليس من المحزن أننا لا نستطيع أن نتحدث عن أي شيء كبير إلا ونحن نتبين ضحالة الآخرين؟...

الشمس تغرق المدينة بضيائها الطليق، وعصافير الظهيرة تتنقل في شرفة المنزل، وسحابات الغروب الرقيقة تنتظر في لهفة ساعة انقضاء النهار. أثمة أجمل من أن تكون الأشياء أليفة إلى هذا الحد؟... حتى أمواج الدخان الدافئة، في غرفتنا الصغيرة، تتحرك في شغف وحنان، كأنها تريد أن تقول إن كل لحظة من الزمن هي امتلاء لا يعرف النضوب.. لكم أشعر باللهفة إلى أن أراك الآن، يا عواطف، وأن نسمع معاً بكاء صغيرتنا الحبيبة في الغرفة المجاورة، تريد أن تكون معنا، وأن تجد في مداعبات أبويها ما يدهش ويضحك.. إنني أسمع صوتكما معاً في الكثير من أوقات الليل الهادئة...

قبلاتي الحارة إليك و إلى ألمى وإلى اللقاء...

صدقي

دمشق ١٩٥٩/٢/٤

الحبيبة ع..

قبلات حارة لك ولألمى

اكتب إليك في أول ساعة يتاح لي فيها أن ألجأ إلى مكان منعزل، فقد كانت عمليات العودة إلى المنزل كثيرة، كما أن الكآبة التي هيمنت على نفسي منذ أن تركتك في المطار، كانت على جانب من الصمت الحزين، منعني من تركيز الأفكار، وصياغة الجمل، على الرغم من موهبتي المعروفة في هذا المجال. لقد كانت السفرة هادئة سريعة، وكنت طوال الساعتين، أتأمل في انجذاب غريب، جمال الغيوم التي تتبسط تحتنا، كأنها أرض عالم خيالي، ولم تكن تفارق خيالي صورتك الحبيبة، ونظراتك، وحركات يديك الصغيرتين، وكنت أسمع ضحكة ألمى في كل صوت يتردد حولي. ولكم خيل إلي أنني أعود إلى صحراء قاحلة. إن وجودك الجميل هو كل ما في حياتي، يا عواطف، تلك هي الحقيقة التي تتبدد عليها جميع مشاعري وانفعالاتي المزدحمة، كما تتبدد الأمواج المزبدة على صخور الشاطئ الندية. لكم أرى هذا الحب نامياً راسخ الجذور، يتغذى من حياتنا يوماً بعد يوم، لكي يحتفظ أبداً بشبابه الغض وبراءته الرائعة. وهل في هذه الحياة ما هو أثمن من أن نغدق على حبنا الفتي، كل ما نستطيع من حرارة وعنفوان؟ وماذا كنا نستطيع لولا هذا الينبوع الأبدي الذي شق طريقه في صدرنا، وتحدى جميع الهموم والأحزان، وفرض نفسه على الزمن.. هذا الينبوع الذي تعجز الكلمات عن وصفه ولكننا نستقي منه في كل لحظة، معنى جديداً للحياة.. ألا تشعرين بشيء من هذا القبيل؟ أشياء صغيرة تصبح قريبة إلى النفس، لأنها كانت لنا ذات يوم: طريق مشينا فيه معاً، أزهار أحببناها، أبعاد من الفضاء الأزرق أسرتنا

بصفائها العميق. فكرة، كلمة، صورة، عشناها معاً. ذلك هو الينبوع السخي الذي يمنحني الشجاعة على احتمال الوحدة الموحشة في هذه الأيام.

وصلنا إلى دمشق حوالي الساعة الثانية. ولم نجد أحداً في استقبالنا أول الأمر، مما سبب لشقيقتك ابتسام بعض القلق والهم، لأن صاحبة السمو - على ما يبدو - متعودة على الاستقبال. وقد اعتبرت نفسي مسؤولاً عن هذا، فاستقبلتها بالحفاوة البالغة إلى أن جاء الموكب وفي مقدمته (رنا وميلا)(١) وبقية الرعية. ووصلنا إلى البيت في مزيد من الترحاب المنتظر، حتى أنني لم أستطع الوصول إلى بيتنا الخاص إلا في الليل.

وقبلاتي الحارة الكثيرة إليك وإلى أملى. وإلى اللقاء.

اكتبي إلي.

صدقي

---

(١) الآنسة رنا شهابي والسيدة ميلا حلبي ـ بنات أخت عواطف.

دمشق ١٩٥٩/٢/٥

الحبيبة ع...

قبلات كثيرة لك ولألمى

أرسلت إليك البارحة رسالة مطولة، واليوم ألجأتني كآبة الجو والرياح الشديدة، إلى الكتابة إليك من جديد. الصقيع يتحرك في كل مكان وينذر بتساقط الثلوج في الليل، وأنا أكتب الآن عند الغروب من مقهى الجسر وفي أعماق نفسي طمأنينة هادئة، على الرغم من أنني أشعر بجفاف كل شيء حولي لأنك بعيدة عني. كيف أنت؟ وكيف صحة الحبيبة الصغيرة؟

لم أستطع بعد، استئناف أعمالي - الكتابية - وذلك بسبب البرد، غير أنني لم أتوقف ساعة عن القراءة. وقد وجدت هنا كل شيء كما هو، يبدو أن دورة الحياة في هذه المدينة بطيئة إلى أبعد حد، غير أن ذلك يساعد على التأمل الهادئ، وعلى نمو المشاعر الداخلية في حياتنا، وهو ما لا تتيحه مدينة كبرى كالقاهرة. إنني أسمعك في الإذاعة باستمرار. وألاحظ من خلال صوتك كل ما يتعلق بالنواحي الصحية. أرجو أن تكوني في صحة جيدة، وأن تكوني قد وضعت برنامجاً معيناً للإكثار من المطالعة. إن القراءة تجدد نفوسنا باستمرار، وتحررنا من تفاهات كثيرة، تقحمنا فيها مشاكل الحياة اليومية. لقد أعدت أمس قراءة قصة «المصير الإنساني» (لشولوخوف)(١). وهي من أقوى القصص المؤثرة في النفس، وقد ترجمت في مجلة الشرق - العدد الأخير - باسم «حظ الإنسان من الحياة». أرجو أن تقرئي هذه القصة. وأخبرك بالمناسبة أن الدكتور جمال(٢) استلم هنا الجريدة الكبرى، التي سوف تصدر في دمشق، على أن نعمل معه جميعاً، وقد قرروا أن تكوني من أسرة التحرير، ولا سيما ما يتعلق بالشؤون النسائية، فتابعي في الصحف الأخبار المتعلقة بهذا الموضوع، ولا سيما ما يتناول الحوادث العالمية؛ المؤتمرات والأدب النسائي.

أرجو أن تكتبي إلي طويلاً، تحياتي إلى الجميع، وقبلات حارة إليك وإلى ألمى. وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) كاتب روسي.

(٢) الدكتور جمال أتاسي.

دمشق ١٩٥٩/٢/٩

الحبيبـــة ع...

قبلات كثيرة..

يغمرني حنين جارف إليك لا أعرف سره؛ فمنذ أن تركتك وأنا أذكرك في كل حين. ويتراءى لي في كل لحظة وجهك الحبيب. أهو نوع من السلوى يلجأ إليه الخيال، لكي يخفف عني شيئاً من وحشة البعد؟ كل ما أعرف هو أنني أصبحت هادئ المشاعر، مستسلماً للأشياء الصغيرة التي يخيل إلينا أنها لا تحمل أي معنى في حياتنا اليومية: أغصان الشجر العارية، منعطفات الشوارع، الأرض الخالية من العابرين، ضوء الشمس الفاتر والدخان الساكن في الغرفة الصغيرة. لكم تبدو لي هذه الأشياء حوادث هامة تهز النفس وتغذي الخيال! وأحياناً أحس أن بي مرضاً لا سبيل إلى قهره. تأسرني به الأشياء وتسلبني حتى الأفكار والخواطر الداخلية. هل عرفت في يوم من الأيام مثل هذا الأسر؟ ألا ترين فيه شيئاً من التحرر والسلام، تمنحنا إياهما اللحظة العابرة دون أن نشعر؟ يجب أن تكون النفس البشرية على جانب من التناقض والظلام، لأننا عندما نرجع إلى ما يجري في أعماقنا نقف أمام عالم غريب، لا حدود له ولا تخوم، ولا نعرف كيف يبدأ وأين ينتهي، وعبثاً نحاول أن نفهم له منطقاً معقولاً. إننا نريد أن نتبين حقيقته في وضوح، ولكننا لا نستطيع، لأن ما في النفس من خواطر وصور يمر مسرعاً عابثاً كأنه بقية من حلم منسي لا يكاد الخيال أن يلحق بأطيافه العابرة، ولذلك فإننا ننسج من نفوسنا تصورات وهمية، نريد أن نفصح بها عما يضطرب في الأعماق..

صدقي

دمشق ١٩٥٩/٢/١٢

الحبيبـــة ع..

قبلات كثيرة..

اكتب إليك بعد منتصف الليل. وكل شيء حولي غارق في السكون. لا أعرف لماذا لم أستطع الرقاد. لقد أويت إلى بيتنا منذ الظهر وكنت متعباً. وما من ركن في العالم يبعث الطمأنينة والراحة كهذا البيت الصغير. أحس فيه أنني قريب منك ومن أملي، بل أنتما تحتلان كل زاوية فيه، وتهيمنان على كل شيء، وعلى نفسي الكئيبة الوحيدة.. وقفت عند الغروب ساعة أمام زجاج النافذة الغربية أرقب انحدار الشمس إلى المغيب. كانت ثمة غيمة حمراء تشبه ريشة أرجوانية من جناح طائر غريب، وكان الأفق صافياً أملس، والشمس الصفراء تدفن نفسها في هدوء المساء. أية رغبة جارفة تجتاح كياني، أن أراك إلى جانبي، وأقول لك شيئاً عن عاطفتي وحبي. ما من خلجة من مشاعري تحمل بعض الحرارة والحياة، إلا وأنت صورتها وغايتها، يا عواطف. لقد أصبح جمالك الهادئ ينبوعاً لكل ما في حياتي من غبطة وإيمان... وفي كثير من الأحيان استعيد الماضي، الذكريات القريبة التي عشناها معاً، ساعات الانتظار، ومسرات اللقاء، والأحلام الجميلة التي كنا ننسجها عن مستقبل حبنا. وأتذكر الأحزان أيضاً، والأخطاء، والانفعالات الكثيرة، ويبدو لي كل شيء في هذا الماضي، نابضاً بالحياة والصدق، حتى الحماقات التي لا سبيل لتبريرها، تبدو ذات معنى. ألا يمكن أن تكون وسائل يتذرع بها الحب الكبير ليحمي نفسه، أم أنني أتغذى بهذه الخواطر في عزلتي الحزينة؟.. غير أن شيئاً واحداً هو الحقيقة التي لا نستطيع شيئاً من دونها، وهو «أن نكون معاً». لكم تبدو لي هذه الحقيقة راسخة لا تقهر..

لماذا لا تكتبين إلي. أنني أتسقط أنباءك كل يوم، ويسرني كثيراً أنك في صحة جيدة، وقد قرأت المقابلة الصحفية في مجلة الإذاعة، وأجوبتك الدبلوماسية، وسررت كثيراً بالصور على الرغم من سوء طباعتها الذي لم يستطع أن يمحو معالم الجمال، وسمعت برنامج الأحد الماضي وهو ناجح جداً؛ وقد تتبعت نشرات الأخبار في الأوقات التي حددتها، وقد علّق عليها بعضهم هنا، أنك تتأثرين فيها بلهجة الإقليم الجنوبي، ولكنني لم ألاحظ ذلك، إن شخصيتك المستقلة واضحة فيها، لولا الاستهلال «هنا القاهرة». لقد فرحت كثيراً أن الحبيبة ألمى بدأت تعض، اكتبي لي تفاصيل عن ذلك وعنها. لقد أصبحت منذ أسبوع مدمناً على السينما، أنا (وفائز)[1] بالطبع، ولعله هو السبب. لا شيء آخر سوى أشواقي إليك وإلى الصغيرة... ورجائي الحار أن تكتبي إلي ولو كلمات قليلة...

قبلاتي الحارة وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) الأستاذ فايز الحفار شقيق عواطف.

دمشق ١٩٥٩/٢/٢٢

الحبيبة ع..

قبلات كثيرة وأشواق حارة

تلقيت البارحة رسالتك في البريد، وسررت كثيراً أنك في صحة جيدة والحبيبة ألمى. إن دمشق في هذه الأيام شعلة من الفرح والجمال، وما من أحد كان يتصور أن تكون المهرجانات على هذا الجانب من الروعة. إن الجماهير في عيد حقيقي منذ أيام، عيد يغمر الجميع بموجة من التفاؤل والحب، ويبعث في أعماق نفسي حنيناً غامراً إليك، إلى أن تكوني إلى جانبي، أتأمل عينيك الجميلتين، ووجهك الفاتن، وألمس يديك الصغيرتين وأغمرك بالقبلات الحارة... لقد صحا الجو منذ البارحة، وأشرقت الشمس من جديد، بعد أيام من غيوم الشتاء الحزينة. وعلى الرغم من الرياح العاصفة، فإن دفء الربيع يملأ كل مكان. لقد كانت العصافير المرتعدة تملأ شرفة بيتنا هذا الصباح، ولم يكن في الجو أثر للغيوم. وقضيت ساعتين في غرفتنا المشرقة، وأنت معي. لماذا تذكرين الحنق والخصام؟ إن حياتنا جميلة صادقة، لأن حبنا ينمو ويتفتح يوماً بعد يوم؛ إنه يكشف لنا عن آفاق لا نهاية لها من السعادة والغبطة، وعلينا أن نؤمن أبداً، بما يعلمنا إياه هذا الحب الكبير... ففي هذه الأيام الوحيدة الموحشة، أتذكر كل حين، جوانب البهجة من حياتنا. إن جميع الهموم والأحزان لم تكن إلا سحابة عابرة، وكل ربيع دافئ جميل، تسبقه سحابات الشتاء.

لن أستطيع أن أطيل عليك هذه الرسالة لأنني أكتبها من المقهى. والجماهير تزدحم في الشارع، وضوضاء العيد تعرقل كل خواطري. ولكنني على الرغم من هذا، اقرأ كتاباً عن الشعر الإسباني وأتوقع بين حين وآخر، أن يقطع علي هذه القراءة، موكب عابر أو صديق. وقد اخترت لك الأبيات التي ترينها على الصفحة الثانية لشاعر إسباني، نشر ديوانه الأول أخيراً،

وأحدث ضجة في عالم الأدب الأوروبي لأنه اعتبر خليفة للشاعر لوركا، تحياتي الحارة إليك، وأشواقي وقبلاتي الكثيرة وإلى اللقاء.

اكتبي إلي.

١- قصيدة العودة

للشاعر ريكاردو بازيريو (Ricardo Paseyro)
عندما عدت من السفر
استقبلني ضياء حائر
وروعة الأصوات المشرقة
التي كانت تغمرني بالحب..
ولكن أين أمضي؟
وعلى أي باب قديم أنادي؟
وفي أية مدينة ساكنة تشرد عيناي؟
لقد توقفت أفكاري..
عندما عدت من السفر..
وما يزال جسدي يحمل نور الألوان العابر...
الضياء الذي غلّف جسدي بإيقاعه البعيد..
عندما عدت من السفر..
عادت ملامح وجودي البائسة..
ملامح كخطوط الأرض المحروثة.
ومددت يدي للذكريات كمتسول شريد..
مددت يدي لصور الماضي.
للأماكن التي عرفتها.
للنساء والحجارة والسلالم،

وكل ما أحبه ذات يوم
قلبي المسافر..

٢- الشجر الأرجواني

الشمس لا تشرق ولكنها تحترق،
وضياؤها الأبيض
يخضب الشجر بالأرجوان.
الذرى تلتهب..
ورحيق الأوراق المتموج
يهدد الأعشاب الفتية..
ولكن، أية رطوبة في الأعماق!..
وأي اطمئنان!..
الجذع أصبح رخاماً..
وفي الفضاء.. حيث تشرق الشمس بروحها،
تَرفُل الأغصان..

٣- أغنيـة الجبهـة

ما تجديني هذا النفس الرعناء،
وقد عرفت الجنون ذات يوم..
إنها الآن ثقيلة سجينة..
أهكذا نمضي كما لو أننا كنا نعيش.
وكان الزمان والمكان؟
وكانت هذه الارتعاشات
غلافاً لنفسي وثوباً للواقع الذي أحياه؟

أن تعرف أنك ميت ولكنك ما تزال تتنفس في هدوء
أن تصمت ولا تقاوم، وتفتح الشرايين،
وتدع الألم يمزق عظامك،
ويفكك أعصابك ويحطم رعونتك..
أن تمضي كما لو أنك كنت تعيش
تعرف أنك ميت،
ولكنك ما تزال تتنفس في هدوء.

صدقي

دمشق ١٩٥٩/٢/٢٨

الحبيبة ع..

قبلات كثيرة وأشواق..

تلقيت رسالتك صباح اليوم، وأنا في لهفة عارمة إلى شيء منك.. فقد قضيت البارحة في المنزل معك ومع صغيرتنا الحبيبة. أفقت في الفجر، فوجدت الثلوج تغطي شرفات البيت، وتتساقط في غزارة مع الصباح الأبيض، ولأول مرة رأيت سطوح المنازل في الحي كله عامرة بالناس، يتقاذفون بالثلج، كأنهم في يوم عيد بهيج. ولا أعرف كيف اغرورقت عيناي بالدموع. ماذا لو كنا معاً في مثل هذا اليوم الجميل، وكنتِ إلى جانبي، وكانت (ألمى)[1] تفتح عينيها لأول مرة على هذا الحادث المدهش!. لكم شعرت بالحنين إليك يا عواطف، إلى وجهك الفاتن، وعينيك الهادئتين، وشفتيك المخضلتين ببراءة الجمال. كانت زوبعة الثلوج تضرب زجاج النوافذ والأبواب، ولم تكن في نفسي إلا صورتك الحبيبة؛ فمتى تعودين؟. لقد كتبت لك في هذه الوحشة قصيدة صغيرة من أجل ميلادك في ٢١ آذار، وسوف أرسلها لك غداً؛ إن تأخر البريد يدفعني إلى ذلك؛ أرجو أن تكوني فرحة في مثل هذه المناسبة، أما أنا فلعلك تذكرين هذا البيت الذي كتبته لك في رسالة سابقة "لو لم تكوني كيف كان الوجود. لولاك هل كنت؟" وقد اغتنمت فرصة سفر أحد الأصدقاء، فأرسلت إليك معه طوقاً من الصدف، لأنني رأيتك في الحلم منذ يومين تسيرين معي في بلودان، وأنت في ثوبك الشتائي الأحمر، وفي عنقك طوق من الأصداف؛ ولحسن الحظ وجدت مثيلاً له في المخزن الصيني؛ فأرجو أن ينال منك شيئاً من الإعجاب وتخبريني عن وصوله...

---

(١) ابنة صدقي.

لقد عدنا إلى الدروس من جديد، وقد سررت بذلك؛ فالعمل المدرسي يشغلني في النهار على الأقل، بعد أن امتدت عطلة العيد القومي عشرة أيام،.. ولكن كان علينا أن نذهب إلى المدرسة كل يوم لمشاركة الطلاب في الاحتفال... لقد طرأ تعديل على برنامجي في الأسبوع الماضي فقط، بسبب الاحتفالات بالوحدة. الجميع هنا يسلمون عليك؛ ولا سيما أمي التي تذكرك طوال النهار وتحمل في جيبها صورتك مع أملى.. وقد أجرينا لها أمس عملية في يدها لأنها جاءت من انطاكية وهي تشعر بألم في يدها، بسبب وقوعها هناك، وعرفنا أن هناك كسراً بسيطاً في عظمة الرسغ، وقد نجح التجبير لحسن الحظ؛ إنهم في البيت المركزي قلقون لأنكم لا تكتبون إليهم، ولا تخبرونهم عن موعد مجيء هند بالضبط، بعد أن انتهت الأيام العشرة التي ذكرتها في الهاتف... تحياتي إلى (هند وسيف)[1] وقبلاتي الحارة إليك وإلى الحبيبة أملى، اكتبي إلي..

صدقي

---

(١) السيدة هند شقيقة عواطف وزوجها سيف الشريجي.

دمشق ١٩٥٩/٣/٣

الحبيبة ع..

أشواق وقبلات كثيرة

تلقيت رسالتك اليوم، وكنت أنتظرها في لهفة حارة، ولا سيما في هذا اليوم. فقد كان الجو غائماً مضطرباً. والصقيع ينشر الوجود في كل مكان. وكانت الكآبة تسحق نفسي، وتبعث الجفاف في كل شيء. إن كلماتك وحدها تستطيع أن تفتح نفسي للناس والأشياء، وأن تعلمني النظر إلى جمال العالم، والتمتع بكل ما فيه.. وقد تبدلت خلال لحظات، وخيل إلي أنك وألمى إلى جانبي، اسمع صوتكما الحبيب، وغمرني شعور جميل بأن الأيام التي تفصلنا لم تعد إلا هنيهة عابرة..

لقد سرني أنك تكتبين تفاصيل عن شؤونك، لأنني اقرؤها مراراً في نشوة غريبة، وأملأ بها فراغ حياتي في هذه الأيام الحزينة، فاكتبي إلي طويلاً، يا عواطف، إذا كان ذلك يريحك قليلاً من أعباء العمل. لقد استمعت يوم الأحد إلى البرنامج، فرأيته قوياً؛ يظهر أن الاقتصار على موضوع واحد هو أفضل لهذا البرنامج. وقد أعجبت كثيراً بالهدوء الذي أصبح يطبع قراءتك بصورة خاصة، اكتب إليك من مقهى الجسر وأنا بانتظار (فايز ناديا)[1] للذهاب إلى فيلم عظيم - كما قيل - في سينما أمير اسمه (١٠ شارع رودريك لغاري كوبر) مع العلم أننا ما نزال مدمنين على السينما بسبب قوة أفلام الموسم، أرسلت إليك صباح اليوم رسالة صغيرة فيها قصيدة متواضعة من أجل ميلادك، أرجو أن تسري بقراءتها. إنني أداوم على الجريدة كل مساء،

---

(١) فايز وناديا حفار.

وقد استلمت فيها القسم الثقافي والتوجيهي، وتعلمين أن هذا النوع من العمل لا يتعبني على الإطلاق، بل يفيدني في تنمية ثقافتي ومطالعاتي. أرجو أن لا تكون أعمالك أنت متعبة، ولا سيما في هذه المرحلة الأخيرة. أخبريني إذا كنت بحاجة إلى شيء في هذا المجال، كتلخيص مسرحية أو كتاب؛ فإن لدي هنا مجموعة هائلة من المصادر الثقافية الراقية في مكتبة الجريدة، لن أستطيع الإطالة الآن لأن الساعة بلغت السادسة والربع. فإلى اللقاء في رسالة بعد غدٍ، لأن يوم الأربعاء مشحون بالدروس. أشواقي الحارة إليك وقبلاتي لك ولأملي مع كل حبي.

- كتبت لك هذه الأبيات المتناثرة علها تعجبك..

صدقي

أبيات متناثرة

وأقول في غمغمات مرحة: مهما يكن العالم دخيلاً على ما نريد.
مهما يبدُ لنا بعيداً عن الخير والسعادة والصواب،
فإنه يلبثُ أبداً أجملَ العالَمِين.. وتلك هي كلمةُ الحب الأولى
ومن هذا الإحساس، من هذه الفكرة أنطلقُ في الحياة.
وأنا أعرف أنه لا شيءَ بعد ذلك يمكن أن يزعزعَ طمأنينةَ قلبي.
لا الشكوكُ التي تُدينُ كلَ شيء، ولا المخاوفُ الصغيرة،
لأنني أؤمنُ بأن النظرةَ العميقة تستطيع أن تنفذَ إلى سرِ الطبيعة،
وأن جميعَ الأشياء تحيا حياةً خالدة،
وأن الموتَ نفسهُ ليس إلا صديقاً للقلوبِ العامرة بالود،
بل هو مجردُ وهمٍ لا جدوى من التفكير فيه.
تلك هي سعادتي الحقة: أن أبددَ أيامَ حياتي
في هذا المزيجِ المتشابك من الفرح والعذاب
تنمو فيه توابلُ الحياة ويَنْبُتُ زهرُ الأحاسيس
وتستيقظ شهوةُ الفكر، فتظلِّل كلَ إحساسٍ بصفاءِ الحكمة،
ولكن النار باقيةٌ في نبضات العروق...
فما كان لأحلامي أن تَقيلَ في موعدٍ جميل،
ما كان لي أن أحطمَ أشواكَ الحنين التي تُدمي الجوانحَ
أو أُخمدَ هذا الشوقَ الوديع في ظلالِ الهجران الباردة؛
لا.. لم يكن حنيني إلى لقياكِ فحسب، كما يفعل المحبون

بل إنها جذوةٌ غريبة من العواطف والذكريات
تحملني أبداً على أن أراكِ كل يوم من العمر..
فإذا كانت الحياةُ واحدةً، والشمسُ التي تشرق وتغيب هي نفسُها شمسُ كلِ نهار
فكيف لا ابتهل إليكِ أن تكوني المغامَرة الوحيدة
في حكاية القلب بكل ما فيها من الهمساتِ والألوان والرعشات..
أن تكوني الإرادةَ النهمة والرغبةَ التي لا تعرف الاكتفاء
أن تقتنصي كلَ هنيهة من تيارِ السنوات السريع
لأن الزمنَ سجّانٌ عابثٌ لا تفلت منه الأويقاتُ العذبة
إلا إذا سقيناه الكأسَ حتى الثمالةْ.
ولكنَّ الكلمات، واأسفاه! قلقةٌ باهتة في غمرة الأماني
أعليَّ أن أُعيدَ همساتِ البوح في كل لحظةٍ؟
أن أمجِّد هذه العاطفة في كلِ مطلع شمس؟
أن أوِّقع كل مساء لحنَ اللقاء الأول؟..
كما لو أن الحب لا يقف على قدميه إلا بالبراهين؟
كما لو أن زهراتِه المُرهفة لا تتنفس إلا مع الندى البليل؟
فليكن؟.. إن الخيالَ ليزدادُ جموحاً. والرغباتِ لا تخلُدُ إلى السكون
وهل في الحب إلا الانتظارُ المتطلِعُ إلى الأبعاد؟
هل حُتِّم عليه أن يتوقعَ الحياة أبداً، من دون أمل؟
ولكنَّ كلَّ فكرةٍ من أفكاري تنبُتُ وتنمو وتعطي ثمارَها اليافعة...
كلُ ذكرى تخيم على وجودي كما تخيّم قُبةُ السماءِ الرحيبة،
واسأل نفسي في غمرةٍ من الوجد الراعش:
أهناك أشياءُ أخرى تحتل الأمكنةَ وتحملُ الألوان،
أهناك ما يَقوى على الحركة دون لمسةِ الحب المشرقة؛

لا.. ليس في الوجود إلا هذا العالِمُ الحقيقي
إن ما يُضيئُه القلب هو الذي نلَمسُه ونراه،
وكلُ شيء دونَهُ يتبعثر أشتاتاً في فراغِ النسيان..
كلُ شيءٍ حتى الزمن..
أليس لنا إذن أن نقدّس الوفاء
أن يَتْبَعَ أحدُنا الآخر إلى أغوارِ الفناء
كما تُرغِمُ التقاليدُ القاسية نساءَ الهنود،
إلى أنَ يتبعنَ أزواجَهن إلى ظلامِ القبر.
أليس لنا أن نرتقبَ معاً ذلك اليومَ السحري
الذي نُصبح فيه زهرتيْن في غصنٍ واحد
أو درقتينْ وادعتينْ في زهرةٍ أنيقة؟
ألا تذكرين أيام الغِراس الضاحكة، حين ألْقَينا أولى البذور
أيامَ أحسسنا الجذورَ الفتيّة تتشعبُ في جوانحنا
كما لو أنها عاشت منذ مائةِ عام.
لقد عرفنا الكثيرَ من الجراح الصغيرة، والهمومِ المتعبةْ
واستطاعت الأقاويلُ أن توردَنا القطيعةَ الخرساء،
وكان لنا الارتيابُ القاسي وساعاتُ الفتور الشاحبة
ولكن وجودَنا معاً كان حقيقةً أكثرَ من كل شيء..
كنا نعرفُ أن الألمَ العميق يُصبح عابراً في تنهداتِ المحبين
ويتلاشى بعد حين في إيقاع الأُلفة الرائعة..

حلب ١٩٥٩/٣/٧

الحبيبة ع...

قبلات وأشواق حارة.

لم يتح لي أن أكتب إليك منذ أيام، كنت أشعر خلالها بوحشة ليس لها حدود. وكنت أخشى أن أكتب الكثير عن الكآبة والأحزان. لا أعرف لماذا أصبحت أجد الانتظار قاسياً، والساعات ثقيلة كأنها ترفض أن تمضي عبر الزمن.. كيف أقول لك، يا عواطف، أن حبي لك هو كل ما في حياتي. كلمة صغيرة بسيطة ولكنها تحمل كل ما في الدم من حرارة، وما في الشباب من عنفوان. ويخيل إلي وأنا بعيد عنك، أنني حين أهمس بها، إنما أقف موقف الإنسان الأعزل الذي يختار مصيره الوحيد في الحياة: أن يعرف كيف يجعل الحب كل قضيته الإنسانية. ومثل هذا الموقف يجعلني أفهم الكثير عن نفسي. "إما وإما". ألا تذكرين هذه العبارة العظيمة (لكيركيغارد)[1]؟.. ماذا كنت أستطيع أن أفعل لولا هذا الخيال الذي بعث فيه الفراق، تفاصيل ذكرياتنا الماضية، كما تبعث رياح الشتاء جذوة النار الخامدة. إن الذكريات تملأ جوارحي كل لحظة، ولا أعرف كيف يبدو لي كل ما فيها حبيباً إلى النفس، جديراً بالتقديس، المسرات والأحزان، الخطأ والغبطة، إنها قصة حياتنا التي أغدقتِ عليها من الجمال والحنان، ما جعلها أسطورة عذبة تشرق بالمستحيل من الصور والألوان.. متى تعودين يا عواطف؟ أظن أنك سوف تنهين الدراسة في العشرين من هذا الشهر. التاريخ الذي أنتظره؛ كيف صحتك وصحة الحبيبة أملى؟ لقد عادت الثلوج من جديد إلى دمشق في هذه الأيام، ولكن اليوم كان ربيعياً، وأنا أكتب إليك في المساء من مقهى الجسر، ولكي يسهل علي وضع الرسالة في صندوق البريد. صحتي جيدة جداً في هذه الأيام، الجميع هنا يسلمون عليك ويذكرونك دائماً.. تحياتي إلى سيف وهند وقبلاتي الحارة إليك وإلى أملى. هل انتهت أزمة طلوع أسنانها؟.. اكتبي إلي وإلى اللقاء القريب.

صدقي

---

(١) سورين كيركيغارد فيلسوف ومفكر دانماركي.

حلب ١٠/٣/١٩٥٩

الحبيبة ع..

قبلات كثيرة وأشواق

أكتب إليك من شرفة البيت والشمس توشك أن تغيب. إنها أمسيات الربيع الساحرة، انتظرها في منزلنا الهادئ، بعيداً عن كل ضوضاء، وليس إلا غمامات الغروب الوردية والموسيقى الهادئة، وأنتِ. التفت حولي في شغف غريب، وأتوهم أنك في مكان ما من بيتنا الصغير، وأن ألمى سوف تستيقظ بعد حين، وانظر إلى الشجيرات الصغيرة في الأُصص الخضراء، فلا أجد إلا اليبس والجفاف. كل شيء باهتٌ يابس في غيبتك يا عواطف، كل شيء حتى نفسي الحزينة. إن جمالك البريء يملأ خيالي. لقد كانت حياتي كلها انتظاراً، ولكنني أريد أن أراك الآن، لكي أقول لك: إنني أحبك وأن حبنا أقوى، إنه الأبدية...

غابت الشمس وأطلق مدفع الإفطار. ثمة تغير طرأ على حيّنا؛ لقد استبدلت حنجرة المؤذن الهرمة بصوت جميل، نداءٌ فنيٌ يحمل حرارة الحياة. وقد تخضبت غمامات الأفق حتى لكأنها دماء مراقة. ولكن هيهات أن أحس جمال العالم وأنت بعيدة. لقد دُفن كل ما في ماضينا من الهموم والأحزان، دُفن إلى الأبد، لأن الحب أقوى؛ لي العذر إن تحدثت عن هذا، فأنا أعيش مع الماضي وحده. إن قلبي يتلفت إلى هذا الماضي في شغف مجنون: سنوات طوال من الوجد واللهفة عشناها معاً في ظلال هذا الحب، إنها أجمل سنوات عمرنا يا عواطف، لأن الزمن يمضي، وقد يسلبنا كل شيء إلا الحب الكبير. ولهذا فإن الحياة سوف تكون لنا ينبوع مسرة دائمة، وأية مسرة أجمل من أن نكون معاً؛ أن نتأمل معاً شروق الشمس وغروبها، أن أتأمل وجهك الجميل الفاتن، وأنتِ تقبّلين (ألمى) أو تقلقين على صحتها، أو تستيقظين في الصباح،

وشفتاك مخضلتان بإغراءٍ لا يقاوم. حسبي في هذه الساعة الصامتة أن أقول لك: إنني أحبك أبداً، وإن حبنا هو الأقوى.. إنه الأبدية...

قبلاتي الملتهبة إليك وإلى الحبيبة أملي. سوف أكتب إليك غداً رسالة أخرى، أشواقي الحارة وإلى اللقاء.

في الصفحة الثانية قائمة بأسماء بعض الكتب التي أرجو أن تأتي بها لمكتبتنا.

مغامرات هاكلبري فن - مارك توين.

عشر مسرحيات ذات فصل واحد - ترجمة راجيه فهمي.

النهر الهادي - شولوخوف.

مسرحية: الأحرار - كنجزلي.

سيأتي الوقت، وانطوانيت، رومان رولان.

بوليوس قيصر ترجمة محمد حمدي (شكسبير).

الثائر العظيم: عبد الله النديم، نجيب توفيق.

كتاب الورقة لابن الجراح: تحقيق عبد الوهاب عزام.

التجربة، كازاكفيتش ترجمة إبراهيم عامر.

الأسلحة والرجل: برنارشو، ترجمة فيصل السامر.

أشهر الأوبرات.

كفاح الأحرار - أوفليهارتي.

سبل الحرية، برتراند راسل.

ملاحظة: لقد راعيت في اختيارها أهميتها وأسعارها.. والضروري منها مشار إليها بـ ×.

صدقي

كولونيا ١٩٦٣/٨/٢٠

الحبيبة ع..

قبلات كثيرة وأشواق إليك وإلى الحبيبة ألمى، أرجو أن تكونا في صحة جيدة وحالة حسنة بعد العودة إلى البيت؛ لقد وصلنا اليوم إلى هذه المدينة «كولن» بالألمانية، وهي المقر العام للكولونيا ـ كما هو واضح ـ وعلى الرغم من جمالها الرائع وسحر الطبيعة في دوسلدورف ـ ولا سيما الغابات المحيطة بها ـ فإنني أشعر بحنين جامح إليك، كان يجب أن تكوني إلى جانبي لكي تبدو لي الأشياء على جمالها الحقيقي؟ ولأول مرة تتاح لي فرصة الكتابة، لأن معظم الأمكنة العامة هنا لا تصلح إلا لشرب البيرة، والثرثرة مع الألمان بلغة مكسّرة؛ لقد قرأت كتاباً جديداً ـ من مكتبة الفندق ـ (لالدوس هكسلي)؛ واسمه «الجزيرة»؛ ينتقد فيه الحضارة الحديثة، ويرى بأنه على الرغم من جميع المظاهر الحضارية الراقية في الحياة الغربية، وهي كلها تبعث على التفاؤل بمقدرة الإنسان على أن يتجاوز جميع الصعوبات والأزمات، التي تهدّد مصيره، على الرغم من هذا كله، تبدو هذه الحضارة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية موضع تساؤل قلق يمكن أن يأخذ شكله المألوف في الكلمات التالية؛ إذا كانت الصناعة قد أتاحت للإنسان أفضل الشروط للرفاهية والسعادة، فهل يمكن أن تعتبر هذه الشروط مقياساً إنسانياً؟ أو بمعنى آخر، هل يمكن أن تُعتبر الأسس العلمية التي تقوم عليها حياة الحضارة، دعائم للوجود الإنساني الحق، الذي يتيح لكل فرد أن يشعر بالطمأنينة والغبطة، وهما من أعمق حوافز النشاط الحضاري في جميع العصور؟..

لقد أجاب الكاتب الإنكليزي (الدوس هكسلي Aldous Huxley) على هذا التساؤل بروايته الأخيرة «الجزيرة»، وهي موضوع فلسفي عن مشكلة العصر الحديث، أكثر منها قصة تلفت النظر، أما موضوعها فيتلخص في أن

جزيرة بالا Pala القائمة في المحيط الهادئ، تعاني مشكلة صعبة على الرغم من عزلتها الهادئة السعيدة. ذلك أنها تعيش في سعادة وسلام لا وجود لهما في أية بقعة في العالم، فهي الجزيرة الوحيدة التي استطاعت أن تمتنع على شركات النفط، وترفض السماح لأي إنسان أن ينّقب في أرضها من أجل النفط، لأن الحاكم فيها كان رجلاً ساذجاً، قد ربّى شعبه على القناعة بالقليل من أسباب الرزق لأنه كلما ازدادت مطالب الإنسان وحاجاته اليومية، وجد نفسه مرغماً على استغلال الآخرين.. وهذا ما يفعله الباحثون عن النفط أو مستثمروه؛ غير أن محنة الجزيرة لا ترجع إلى هذا، بل إنها في الوقت الذي اختارت فيه رفض الحضارة من أجل طمأنينة النفس - وجدت نفسها أمام حرب طاحنة، قامت بها إحدى القبائل، بدافع حب السيطرة. إن زعيم القبيلة يطمح في أن يجعل سلطانه أوسع ما يستطيع، ولا تعنيه سعادة الشعب أو طمأنينته، مقدار ما يعنيه أن يحقق هذه الشهوة، يتساءل أحد أشخاص القصة:

- وهل هناك ما هو أكثر عظمة وروعة من أن يكون الإنسان متفوقاً؟ أن يفرض مشيئته على أكبر عدد ممكن من الآخرين، الذين لا يعرفونه وقد لا يطيقونه ولكنهم مرغمون على طاعته.

وبهذه الروح يقف (الدوس هكسلي) على عتبة المأساة الحقيقية التي يحياها الإنسان الغربي المعاصر. إن «الجزيرة» التي تركها فريسة العدوان «البشري» - إذا صح التعبير - هي رمز للحلم الذي ينهار، ليس في تجربة الكاتب فحسب، بل في آمال العصر كله.. قد يكون من السهل على الإنسان المعاصر أن ينجو من إغراء التقدم الصناعي، وما يمكن أن يقدمه من رفاه ومتعة، ولكنه رأي الإنسان - لا يستطيع الفرار من طبيعته. يقول أحد مواطني الجزيرة: «كان باستطاعتنا أن نجعل الغابات والمروج أبراجاً من الحديد، ومداخن شاهقة، ولكن البترول لا يجدي نفعاً، حين تضطر إلى إخضاع الأهالي السذج، لأناس لا يفهمون لغتهم، إن القليل من الجهد يمنحنا طعامنا اليومي، ولا يفرض علينا أن نضحي بأي شيء أمام ذلك...» فما الذي جر

علينا هذه المصائب؟ هل الصراع هو الأساس في طبيعة البشر؟... أليس هناك من سبيل إلى أن يكون الناس أخوة لمجرد أنهم غير متعارفين!. وهكذا يبدو أن (هكسلي) يحاول أن يضع إطاراً جديداً للحلم الذي راود خيال كثير من الفلاسفة والشعراء قبله، أفلاطون، توماس مور More، كامبانيلا Companella وغيره، غير أن اليوتوبيا الجديدة Utopie، كما يرسمها الوجدان المعاصر تحمل اليأس المطلق، وتلك هي نقطة التحول في تجربة الحضارة الغربية؛ يقول (هكسلي) في بعض صفحات الكتاب: «لم يعد ثم مجال لأي شكل من أشكال الحكمة التي يمكن أن يحياها البشر، سواء كانوا في قلب المعامل أو في حدائق الورد. إنهم ملزمون بمصيرهم الذي صنعوه بأيديهم في هذه الأجيال، الحافلة بالعمل والتقدم والعمران. ولكن حادثة واحدة تستطيع أن تحوِّل كل ما بنوه إلى خراب، لا لأنهم قد فقدوا الإرادة، بل لأن هذه الإرادة - وهي في عنفوانها - لا تستطيع أن تلتزم ما ينبغي من التعقل والحب - في الوقت المناسب - وهذا ما حدث لسكان بالا - الجزيرة الوادعة - لقد أحبوا السلام ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة الحرب بطريقة أخرى غير الحرب...».

إلى اللقاء في رسالة الغد.

صدقي

باريس ١٩٦٤/١/٧

الحبيبة ع...

قبلات كثيرة وأشواق... لم أستطع الكتابة إليك هذين اليومين بسبب الأعمال الكثيرة التي كان علي أن أقوم بها في فترة قصيرة. لقد انتقلت أول أمس إلى الغرفة التي حجزوها لي في فندق Doisy، وهي غرفة جميلة تطل على الشارع الرئيسي في المنطقة، وأهم من هذا أنها دافئة جداً، فالبرد في هذه المدينة لا يطاق؛ مع أن جميع الأمكنة دافئة ما عدا الشوارع، وهي ضرورية للأغراب، إن الانتقال من رصيف إلى آخر يجمد القدمين. لقد قضيت الأيام الثلاثة الماضية في الحي اللاتيني واعتقد أنه المكان المميز لهذه المدينة، رغم أنه غير باريسي بسكانه، لقد كنت أنتقل فيه من مقهى إلى آخر لكي أصادف حشداً هائلاً من الناس، قدموا من جميع أقطار العالم. وعلى الرغم من الضوضاء والازدحام فإن العقل يستطيع أن يشتغل في هدوء وقد بدأت بالكتابة منذ اليوم الأول - وجميع المقاهي هنا صالحة للكتابة. يوم الاثنين ذهبنا إلى المركز، وهو قصر رائع في قلب غابة بولونيا - وقد أحزنني كثيراً أنك لم تكوني معي في هذه الأمكنة الشعرية التي لا توصف، إن جمال الطبيعة في باريس هو أسطورة مثيرة، فعلى الرغم من الضباب والغيوم وأغصان الشجر العارية، يشعر الإنسان بأنه في حلم سحري، وقد أضيفت إليه سعة الشوارع، وجمال التماثيل، والذوق الذي رُتِّب فيه كل شيء؛ في الاجتماع الأول ألقيت كلمة، ولا أعرف كيف استطعت أن أتكلم في وضوح وهدوء، حتى أن مديرة المركز ظنّت أنني قد عشت في باريس عدة سنوات، ولكنني مع هذا ما أزال قصير النفس في المناقشات مع أنني أجيد الحديث في طلاقة وسهولة. السبب هو حالتي النفسية التي ما يزال يخيم عليها

الحزن والتساؤل. لقد حضر هذه الحلقة مندوبون من معظم بلاد العالم (سويسرا ـ رجل عجوز وسيم بلحية بيضاء، نقضي معظم سهراتنا معاً، وقد علمني أصول شرب النبيذ الألزاسي) والنمسا (مفتشة عجوز أيضاً للغة الفرنسية في فينيا) وبلجيكا (شاب شاعر) وبولونيا (اثنان أحدهما من سلالة بادورتسكي على ما يظهر) وهناك مندوبون عن شمال أفريقيا والكامرون (زنجيتان تضحكان بدون سبب) وتشيكوسلوفاكيا والمكسيك (فتاة دميمة في ثياب الكاوبوي) والأكوادور (نسيت الآن من يمثلها) وإسبانيا والبرتغال.. الخ. وعلى الرغم من أهمية المواضيع التي نبحثها فإنني أبذل جهداً للاندماج في الجو العلمي، الذي يفرضه المحاضرون، وهم من كبار الاختصاصين في سيكولوجيا الطفل. نذهب كل يوم في الساعة التاسعة والربع إلى المركز بباص خاص، ونتغدى هناك، والطعام جيد جداً وسخي أيضاً ونستأنف المناقشات حتى الساعة الخامسة مساءً، فنعود إلى الفندق، وما أزال أتعرف على ساحات باريس، إن كل منطقة فيها نحتاج إلى يومين، ففي هذا اليوم مثلاً قضيت ست ساعات للتعرف على الشانزيليزيه ومنطقة اللوفر، وكل تمثال في الشارع يحتاج إلى فحص، عدا أن الاتساع يضفي الروعة على كل شيء، لقد أعطونا، يوم وصلنا مائة فرنك كدفعة أولى من الراتب المخصص وهو (١٢) ف في اليوم، مع أننا نتناول الإفطار والغداء عندهم، ولذلك سوف يبقى لدي كثير من المال، وأستطيع شراء أشياء كثيرة، فأرسلي إلي نمر الأحذية والكنزات والتفاصيل اللازمة، إن كل شيء هنا جميل وأنيق، وغلاء الأسعار مُبالغ فيه جداً، لأن جميع الأشياء مصنوعة في متانة. غداً سوف أرسل بطاقات للجميع لأن بعد الظهر فرصة. يوم السبت، أي ١١/ سوف نذهب إلى منطقة في شمال فرنسا اسمها Caen وسوف نبقى فيها عدة أيام. لقد درست حتى الآن جميع الأمكنة المتعلقة بالمسارح، ولكنني لم أجد في نفسي رغبة في رؤية أي منها، سوى أنني حضرت مسرحية تاجر البندقية في الأوديون Theatre de France ووجدتها رائعة مع أنني كنت في الطابق السادس. بعد أيام سوف تقدم مسرحية لبيكيت في المسرح نفسه وفي

أوائل شباط سوف يقود (كارايان)[1] بنفسه (أوركسترا برلين) (موتسارت) (وتشايكوفسكي) (وشتراوس)، وقد بدأ الحجز منذ الآن. هنا في كل يوم يستطيع الإنسان أن يجد شيئاً جديداً، ولكن يجد الحياة أولاً. كيف صحة البيت؛ إنكم لا تفارقون أفكاري لحظة. أنت وأملى وإياد[2]، أرجو أن لا تكوني في حالة الانزعاج من أجلهم، اكتبي إلي دائماً يا عواطف إلى عنوان الفندق؛ لأنه أسرع، وأظن أنك تذكرينه. لا تهملي أية كلمة، لقد اتصلت بكثير من الأصدقاء هنا، ومعظمهم يدرسون في (السوربون) ولكنني لم أجد وقتاً لرؤيتهم بعد ذلك بسبب الأشغال الكثيرة، قبلاتي إليك وإلى الحبيبين أملى وإياد وتحياتي إلى الخالة بهيرة، والجميع وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) هربرت فون كارايان من أشهر قادة الأوركسترا في العالم.

(٢) إياد الابن الأصغر لصدقي.

باريس ١٩٦٤/٢/٧

الحبيبة ع...

قبلات كثيرة وأشواق حارة..

تلقيت رسالتك الأخيرة أمس، لقد سرني أنكم في صحة جيدة، وغمرني ضيق جارف إلى أن أراك. إنك لا تتصورين كم افتقدتك في هذه المدينة الرائعة.. إن جمال باريس يستدعي العاطفة الصادقة والحب. لأن كل شيء فيها جدي وعميق، من تشرد السكارى، إلى المسرحيات الفلسفية ـ وجميع المسرحيات أصبحت فلسفية في هذه الفترة ـ. أكتب إليك من مقهى اسمه (Alma ألما) في ساحة تحمل الاسم نفسه، وهو على خطوات من برج إيفل وقصر شايو في آن واحد. لقد رأيت اليوم ـ في شايو ـ مسرحية رائعة (لفيركور)(١) ـ وسوف تمثل طوال الشهر القادم.. سوف تنتهي أعمالنا ظهر الأربعاء، ويوم الثلاثاء تقام لنا حفلة رسمية عند الظهر، وفي المساء حفلة استقبال. ومن حسن الحظ أنني احتفظت بالبدلة المكوية للأيام الأخيرة. ما يزال جو باريس متقلباً بين ٧ تحت الصفر، و٥ فوق الصفر، ولكن جميع الأمكنة دافئة إلى حد الإزعاج...

منذ أيام لم أكتب شيئاً ولم أقرأ بسبب ضيق الوقت والاستعداد للسفر، ومع هذا فقد استطعت إنجاز خلاصة مطولة لجميع المحاضرات والأبحاث، التي تناولتها الحلقة، ويمكن أن يتألف منها كتاب يتضمن آخر ما توصلت إليه دراسات علم النفس (بالنسبة للطفل والمراهق)، وقد توفرت لدي في الوقت نفسه مجموعة كبيرة من المصادر... يوم الأربعاء سوف نرى أوبرا (ريغوليتو) في الأوبرا، باعتباره آخر يوم... لا أعرف كيف أعبر لك عن أشواقي الكبيرة إليكم جميعاً، قبلاتي إليك وإلى الحبيبين (ألمى وإياد)(٢)، وتحياتي الحارة إلى الجميع وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) كاتب فرنسي.

(٢) ألمى وإسماعيل وإياد إسماعيل أولاد المرحوم صدقي.

لاهور ٩/٢/١٩٦٥

الحبيبـة ع.

قبلات كثيرة..

وصلت اليوم مساء إلى لاهور بعد أن قضيت ليلة في كراتشي، لعدم وجود مكان في الطائرة. وكانت الرحلة هادئة ومريحة جداً، على الرغم من أنني نسيت عبد المعين والخطيب[1] في مطار دمشق، ولم أفهم لماذا لم يدخلا الطائرة، وكنت أظن أنهما في الجناح الآخر. ولكنني وجدتهما قد سبقاني إلى لاهور. لقد استقبلني في كراتشي موظفو السفارة وأعرف بعضهم سابقاً، وكان الجو حاراً جداً، في هذه المناطق يفكر الإنسان بخلع ثيابه على الفور، وهذا ما يفعله معظم الناس.. أكتب إليك من الفندق المذكور أعلاه وهو من مخلّفات القصور القديمة، وقد حافظ فيه حتى الخدم على تقاليد «المهراجا» ولا سيما في الزي وكرم الضيافة (الطعام الجيد، الغزير، الحار.. الخ) لم أعرف المدينة بعد، ولكن رائحتها كما أحسها الآن، تدل على أنها في قلب غابة؟ والطقس فيها يشبه طقس دمشق تماماً. سوف تبدأ الندوة غداً بعد الظهر ويفتتحها رئيس الجمهورية (أ. خان)، وقد وزعوا علينا البرنامج وهو مكتظ بزيارة المتاحف والمنشآت الرسمية، ويستغرق خمسة أيام، ولم نعرف شيئاً آخر. كم تمنيت لو تكونين معي في رؤية هذا العالم الغريب، كل شيء متسع وصامت على الرغم مما يقال عن الضوضاء في هذا الشطر من آسيا؟ وفي جميع العيون استسلام ورضا وصفاء جميل جداً. سوف أقدم لك تقريراً وافياً بعد الاطلاع غداً. أرجو أن تكوني مع الحبيبين ألمى وإياد في صحة جيدة وأحوال حسنة. قبلاتي الحارة إليكم جميعاً وتحياتي إلى الجميع وإلى اللقاء.

صدقي

---

(١) أصدقاؤه وأعضاء في الوفد.

لاهور ١٤/٢/١٩٦٥

الحبيبة ع..

قبلات حارة إليك وإلى الحبيبين أملى وإياد، أرجو أن تكونوا جميعاً في صحة جيدة ومزاج فرح. أكتب إليك يوم نهاية الندوة، وقد كانت نتائجها جيدة جداً بالنسبة إلينا، وكان وفدنا خلال المناقشات موضع الاهتمام، وعلى الرغم من أن اللغة الفرنسية هنا قليلة الرواج، فقد اضطررت إلى استخدام إنكليزيتي الرطينة، واستطعت أن أحسّنها حتى أتيح لي أن ألقي بها عدة كلمات في المناسبات. لقد كان برنامجنا ممتلئاً ولا سيما في الليل، الحفلات النموذجية في الأناقة، ولم أتقاعس عن مجاراتها، وبرامج الرقص والغناء والمسرح. أما في النهار فلا شيء إلا المناقشات والغداء الحار. جو لاهور متغير جداً، ولكنه دافئ على العموم؛ ولم تتوعك صحتي مرة واحدة، بعكس معظم ممثلي وفود المناطق الحارة، كالفلبين وكينيا واندونيسيا والسودان، وهي أسماء بعض الدول المشتركة إلى جانب ثلاثين اسماً آخر أو أكثر من البلاد الأفرو - آسيوية، ومعظم المشتركين كتاب وشعراء وفنانون، أو خليط من هؤلاء جميعاً على شاكلتي. لقد دعينا اليوم - بعد انتهاء الندوة - إلى دلهي وغُيِّرتْ بطاقة السفر، فأصبحت الطريق من دلهي إلى دمشق. وسوف نقضي في دلهي أربعة أيام أو خمسة، وهي أيام مؤتمر ثقافي يعقد في الهند كل سنة - على ما سمعت - لبحث الروابط التاريخية بين الثقافتين العربية والهندية؛ وسوف نسافر غداً أو بعد غد (١٦) شباط؛ ولا أعرف متى نعود بالضبط إلى كراتشي كما هو مقرر، على كل حال سوف أكتب إليك ببطاقة من دلهي... إنني بشوق زائد إليكم، وأحس الدموع في عيني لمجرد أنني اكتب إليك الآن، ومن حسن الحظ أن «الكاري» الباكستاني يوقظ الخيال، ولذلك أراكم في الحلم دائماً. كيف الحبيبة أملى؟ لم أستطع العثور على شمسية لها

لأنهم هنا لا يستخدمونها، وسوف أحصل عليها في دلهي على الغالب. أرجو أن لا يكون إياد متعباً لك، وإن كنت هنا أتلهف إلى كل خربطاته ومتاعبه.. تحياتي الحارة إلى الوالدة الكريمة والخالة العزيزة وبقية أفراد الأسرة، وقد أرسلت إليهم بطاقات قبل أيام... لو تعرفين كم اشتهي أن تكوني معي في هذه البلاد العجيبة، وكم يقترن حبك بالبهجة في كل خطوة أخطوها... قبلاتي الحارة الكثيرة إليك وإلى اللقاء.

صدقي

من رسائله لأصدقائه

دمشق ١٤/٧/١٩٤٤

صديقي..[١]

أرجو أن تكون في حالة لا بأس بها، وأعتقد أن السأم واليأس سيزولان عنك في هذه الأيام، بسبب انفراج الأزمة التي كانت تهدد مستقبل بلادنا. فهم على الأقل كما يقول أحد مناشير عفلق: لن يعودوا.... أرسلت لك رسالتين كسلامات، أرجو أن تكونا وصلتا إليك وتسليت بهما بعض الوقت. ماذا تفعل في هذه الأيام؟ أي ماذا تقرأ لأنك لن تفعل شيئاً، إنني بانتظار مسافر لأرسل لك (شبنجلر)[٢] برفقة هدية صغيرة من نوع آخر. إنني في ملل واسع عريض، اضطرني إلى الاهتمام بالواقع، ولهذا فأنا أكتب إليك الآن في مقهى البرازيل، وأمامي مكتبة من المجلات العربية والإنكليزية، وقد قرأت أكثر تعليقات الأمريكان على سوريا ولبنان، فرأيت أن قضيتنا أصبحت عالمية، ولا خطر علينا بعد. كنت البارحة في التل وقد تسليت بها قليلاً فقط لأن الطبيعة فيها بسيطة، يبدو عليها الضعف، فلا توحي الرهبة كما هي الحال في قرى اللاذقية وحوران، وقد جلست بجانب شلال صغير وتذكرت شلالات دفنة الهائلة، والتي كانت تخيفني في صغري، وأدركت كم كان (كانت)[٣] عميقاً عندما قدّس كل ما يدعو إلى السمو والاحترام. يجب أن تكون كرامة الإنسان كالبركان الثائر، أو كالشلال الهائل، تشعرنا بالروعة والتقديس لا الرحمة والعطف والإعجاب الذي تولده أنانيتنا.

---

(١) يبدو أن المرحوم صدقي، اتفق مع بعض أصدقائه، على تبادل الرسائل المتبادلة، لذا فقد عثرنا على بعض هذه الرسائل، التي كان قد بعث بها إلى بعض أصدقائه، ونعتذر عن ذكر أسماء أصحابها.

(٢) فيلسوف ألماني.

(٣) فيلسوف ألماني.

هل تتبع مشاكل العالم التي تعالج مؤقتاً الواحدة بعد الأخرى. إنني أتوقع نشوب ثورة أوروبية، ولو بعد زمن - هي ثورة الجماهير. فالحقيقة أن الدكتاتورية لا تزال في أوروبا أعنف من قبل، لقد انتقلت من أفراد إلى حكومات. فالشعوب التي خضعت لحكوماتها، وجاعت، وتألمت في زمن الحرب لا تزال خاضعة، جائعة، تعيسة بينما يقدم للحكومة التبجيل والتمجيد بالنصر. وسيبقى الأمر كذلك. (رأي سياسي).

تحيـاتي

صدقي

دمشق ١٩٤٤/١١/٨

صديقي..

أفقت صباح هذا اليوم، في ساعة مبكرة، وفي نفسي إحساس عميق بعواطف خفية غامضة، ولفت نظري نور الشمس البارد وهو ينساب في هدوء على الجدار... خضرة الأوراق الكامدة وهي تنفض عنها في صمت غبار الظلام. وشعرت بالوحدة.

وحاولت أن أطرد جو الوحدة القاتل منذ هذا الصباح، فتناولت كتاباً اسمه «نهم إلى الحياة» «Lust for Life» وهو حياة (Van Gogh). فلم أستطع قراءة كلمة منه، لأن الصورة المنشورة على الغلاف، وهي صورة الرسام بريشته، بعثت بنفسي كل ما عرفت من صوره. تذكرت صورة «آكلي البطاطا» وكيف انسحق قلبي عندما رأيتها لأول مرة منذ سنوات، وكنت في حماة، في ليلة ماطرة، ارتجف من البرد، وعلي[1] إلى جانبي مخرق المعطف، يخترع نكتة ليحكيها لي، وكنت أقول: لو لم أكن في المدرسة الآن، أين يكون مأواي؟.. وخيل إلي أنني أعرف أشخاص هذه الصورة كل المعرفة؛ أعرفهم بوجوههم الدميمة الجامدة، وعيونهم القلقة الكئيبة، وهذا اللون الأصفر الحار الذي يتموج حولهم.. وتذكرت صورة بيت المجانين Maison des fous، والنسمة الباردة التي تعصف في اضطراب وعنف، بكتلة الخضرة في الشجرة الكبيرة. وذلك اللون الرمادي الحار الذي يشعر القلقين بالدفء. وتذكرت صورة «عباد الشمس» واللون الأصفر الحي، الذي يخلق في النفس حنيناً، متدفقاً حاراً إلى اليابان والشرق، أرض اللون والنور والدفء. إن عبقرية (فان غوغ) تتجلى في وضوح في هذه الصورة، وترينا نفس هذا الفنان في ذروة عالم

(١) علي محسن زيفا.

ميتافيزيكي حر مطلق. هو يفهم اللون لا تركيب الألوان، يفهم الحياة المتموجة الطليقة، لا الحياة المشوهة التي تحددها الأشكال والألوان. يفهم أن للون الأصفر قيمة مطلقة وحياة مستقلة. إنه رمز من رموز الوجود الأكبر المقدس، كالموسيقى والشعر، والكلمات المقدسة.

ولا أعرف مصدر هذا الشعور العنيف الذي ينبثق الآن فجأة في نفسي، فيخيل إلي أن في مظاهر الطبيعة الجامدة، هنا، رغبات خفية تتجاوب معها نزعاتي. وأحس رغبة بنظم قصيدة عنوانها «ماذا يقول النور البارد» ولكن هل أستطيع؟

صدقي

دمشق ٢٠/٥/١٩٤٥

صديقي..

يغمرني شوق إلى كل شيء الآن، وأنا في فناء المدرسة، أقرأ «الغذاء الأرضي»[1]، و(مينالك) يروي قصته (لأليد): عندما بلغت الثانية عشر من عمري.. (الكتاب الرابع). ويخيل إلي أن وراء الألفاظ التي أتلوها دماءاً تتدفق فيها نيران الجحيم، لا أفكاراً... فالحقيقة أننا عندما نريد أن نفهم «اندره جيد» نراه ثرثاراً سخيفاً، وربما كان أول من يتوارى اسمه من عالم الأدب. إنه في الحقيقة يمثل فاصلاً بين جيلين، جيل استعبده الفن، وسخّره المجتمع، جيل إنساني.. بكل ما لكلمة الإنسانية من معنى، وكلاسيكي، ويتمثل في (شكسبير) و (غوته) و (بيرون) و (بيتهوفن) و (رمبرانت). وجيل آخر، معاصر، تمرد على كل شكل، وتحرر من الفن والفكرة والمجتمع، ليحيا، وتمثل في الطليعة الأولى: (نيتشه)، (شيلي)، (غوغان)، (وايلد)، (غويا). ولكن هذه الطليعة بقيت خاضعة، لم تنفض عنها غبار الماضي لأنها أنتجت... وخضعت للفن، وقالت في إنتاجها كل ما لم تجسر على قوله في الحياة مع أن الحياة هي كل شيء... وكان من تعاسة «جيد».. و «لورانس» و«بيكاسو» أنهم كانوا فاصلاً بين هذين الجيلين، لأنهم أرادوا أن ينقلوا إلى البشر بلغة العقم والرجعية، والعبودية، أروع إحساسات الخصب والانطلاق واللذة...

لا بد من ظهور «الطليعة الضحية» التي تحرق نزعات الجيلين وتحترق بها.

إن كل شيء ينذر، بجيل جديد لا يفكر، ولا ينتج ولا يعرف الفن.. فقد آن أن تنتهي مأساة الوجود... آن أن يظهر الجيل الحي.. الذي لا يريد أن

---

(١) رواية لأندريه جيد.

يعرف.. لأن المعرفة نسبية، بل يسعى إلى المطلق... اللانهائي، المتدفق... الإحساس... غذاء الأرض الطاغية التي تحمل الحياة...

ولن يكون لنا، نحن البائسين، شرف المساهمة في التبشير بهذا الجيل، لأن أشباح آكلي الأعشاب والتراب، في بلادنا تطاردنا كل حين، وتربطنا بكل ما هو رجعي رابطة لها قوة الحياة... سنضحي، بأعمق لحظات وجودنا، من أجل الجوع الذي يلتهم الملايين من العرب، الذين تتم سمرتهم المدمرة عن ظمأ عنيف إلى قيادة ذلك الجيل الحي...

الصمت الذي يخيم على المدرسة. نساء متحجبات، على الأسطحة، طفلة نصف عارية، تلعب تحت نور الشمس المحرقة....

إلى اللقاء...

صدقي

اللاذقية ٢٣ تموز ١٩٥٤

صديقتي..

إن شبح تلك الأزمة النفسية العنيفة، التي تركتكِ فيها لم يزل يسيطر على نفسي ويؤلمني، على الرغم من أمواج البحر الهادرة، ومن النشوة التي يغمرني بها الأفق البعيد ويشعرني باستمرار أن النشوة لا تكون إلا في البعيد... لقد كنت عازماً على أن أكتب إليك حتى من طرابلس، لأنني كنت كمن بحاجة إلى البكاء، لعل الدموع تخفف من ألمه، ولكن السيارة كسرت بنا في الطريق، فتأخرنا كثيراً واضطررنا إلى إتمام الطريق في سيارة إنكليزية، ولهذا لم أستطع أن أقف في طرابلس إلا (٥) دقائق، اشتريت خلالها جرائد، وفي اللاذقية، لولا الفرح الشديد الذي قابلني به الرفاق فيها، كدت أنفذ مشروع الذهاب إلى المجهول، ولا تسألي كم شعرت بذلك الانجذاب العميق الذي يكمن وراء كل يأس.

إننا اليوم نتهيأ للرحلة في القرى، وقد نزور منها الجبل كل ثانية، وهذا ما يبدد عن نفسي كل حزن، واضطراب، كم كنت أود أن تكوني معي لأن جمال الطبيعة في هذه المناطق يسحر وينسي... أقول جمال الطبيعة وفي أعماق نفسي كثير من الألم، لأن الجماد، مع الأسف، بقي الوحيد الذي يستطيع تعزيتنا... ولعل هذا الشعور هو الذي أملى عليّ مقطوعة الأرض، أثناء مرضي، وهو الذي يملي عليّ أيضاً بعض (ملحمة ربيعة بن الأكدم) التي أنظمها... كيف حال الإخوان... تحياتي إليهم جميعاً، أرجو أن لا يكونوا في الحبس....

إنني أتطلع الآن إلى صفحة البحر الزرقاء، كأنها ثوب متموج، وينأى بصري إلى ما بعد الأفق النائي، فأتصور نفسي في إحدى الجزر البعيدة التي أستطيع أن أعيش فيها وحيداً، أسمع الموسيقى وأستغرق، إنه الفراغ، الفراغ الهائل هو الذي يملأ نفسي، بحنانه وعقمه، إنه هشيم الحياة، ولهذا يؤلمنا، في هذه الأيام ويؤلمك أنت بصورة خاصة لأنك في تجربة مع ذاتك... ولا يحطم نشوة الحياة، ـ كالتجربة مع الذات...

صدقي

دمشق ١٤/١١/١٩٤٥

صديقي..

اعذرني إذا تحديت قانون الرسائل فكتبت إليك كل ما ليس له علاقة بمفهوم الرسالة، فإنني أشعر في هذه الأيام بحاجة ملحة إلى أن أغير كل شيء... كنت أقرأ أمس أنا وعلي للمرة الثالثة «مراثي النبي إرميا لأورشليم» وقد بقينا عند نهايتها أكثر من ساعة في «معقل بيلسن» ونحن صامتان، نشعر بألم عميق، ورغبة في أن نعمل... وقد لحظت الشحوب الذي ظهر في وجه صديقي وهو يردد: لقد اقترفنا الخطيئة، ولهذا فإن قلوبنا ضعيفة، وعيوننا غمرتها الظلمة... أيها الإله متى تعيد لأورشليم أيام حضورها؟ وتذكرنا فجأة تلك الليالي البعيدة التي كنا نقضيها مع الأستاذ(١) وهو يحدثنا بعينيه الملتهبتين عن المسؤولية التي يجب أن يتحملها كل عربي على وجه الأرض، تجاه أمته وتجاه الإنسانية... وشعرنا بحاجة إلى أن نحطم شيئاً فحطمنا «الكنبة» التي كنا نجلس عليها... ثم تبدد كل شيء في دخان السيكار...

لقد انكببت منذ أيام على دراسة فلسفة الأستاذ دراسة عميقة. وكلما كنت أفهم شيئاً، كنت أتأكد من الشكل الرائع العالمي الذي ستظهر فيه هذه الفلسفة، في مستقبل الأيام أو الأعوام أو الأجيال... وكان يخيل إليّ في كثير من الأحيان أنها الطريق الوحيد للخلاص بالإنسانية... لقد كان الحق يسير بينهم، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الحق، لأنه من لم يعط من فوق، لا يستطيع أن يدرك الحق...».

إنني أتردد قليلاً على مكتب البعث، وأحضر اجتماعات اللجنة الثقافية، ولكنني أشعر بأن هناك أشياء لا سبيل إلى تجاهلها، هي أن فكرة العمل

---

(١) الأستاذ زكي الأرسوزي.

الحزبي تضطرنا إلى أن نجعل العمل الثقافي وسيلة،.. ولعلك أدركت ما في هذا من تنازل بالنسبة إلينا... لأن إيماننا بأن مشكلتنا مرتبطة إلى حد بعيد، بمشكلة الحياة، في هذه المرحلة الإنسانية، وبأنها نور وظلام قبل أن تكون برلماناً، وشكري بك يزداد يوماً بعد يوم، ويشعرنا بضرورة الألم والعمق ليكون البناء متين الأساس... على أن ما نحاول أن نتعاون في البحث عنه هو البذرة، والأرض الخصبة معاً، وهو المشكلة، وبعد ذلك يصبح من السهل إيجاد المحراث والثيران، أو شراؤها، وإن لم يتم ذلك حتى الآن...

لا تنس أن تكتب إليّ.

صدقي

دمشق ١٩٤٦/٤/١٢

صديقي..

لعلك في حالة من الصمت والألم، تعذر لي فيها انقطاعي عن الاتصال بك، فالحقيقة أنني لم أشعر بالقدرة على ذلك حتى اليوم ـ الجمعة ـ وكان من الضروري أن أكتب إليك في فترات كهذه أعدم فيها كل سبيل للعزاء.

بنفسي أشياء كثيرة، أحس رغبة عنيفة في التحدث إليك بها، ولكنني أحجم، لأنها لا تهمك ولا تهمني أيضاً.. إنها من الأشياء الجافة الجامدة التي لا تعبر عن المرء، بل عن الحالة، التي يعيش فيها، هذه الحالة المنفصلة عنا، والتي نسميها عادة اليأس، أو الفراغ، أو بلادة الحس والعاطفة، في مثل هذه الحالة أعيش، وأشعر بها تغمر كل كائن حولي... ما من أحد يحيا فكيف يستطيع أن يعبر عن الحياة. أليس من المؤلم أن يكون هذا الانقطاع بيني وبين نفسي، حاجزاً يحول دون الاتصال بالقلائل من البشر الذين أعرفهم وأفهمهم، وأحس وجودهم كأنه جزء من وجودي. إن شيطاناً خفياً يمنعني من الكتابة إليك كلما حاولت. مع أن هذه الأيام أكثر أيامنا مرحاً وضحكاً، فقهقه فيها دائماً ـ أنا وعلي ويوسف وبقية الأخوان ـ بعد أن فهمنا السبب الرئيسي الذي جعل الشعب العربي، وفي مصر بصورة خاصة، مستغرقاً في السحر الوضيع، والتنكيت والضحك اللامبالي: إنهم يضحكون من أن يموتوا بكاءً...

لا شيء في هذه الأيام هنا، غير الاستعداد الكبير من أجل الجلاء، ولا أدري ما سبب اهتمام الحكومة الشديد بهذا الاحتفال. إن سوريا مقبلة على أزمة سياسية عنيفة لا تعرف نتائجها، بعد أحاديث خفية تتناول خبر تشكل حزب جديد هو حزب «الكتلة»... وهناك إشاعة قوية بأن المجلس ـ يحل بعد الجلاء فوراً، وتبدأ انتخابات جديدة و... إن مجرد تصوري أن سوريا ـ قطعة

من بلاد العرب - ستتخلص نهائياً من أقدام - المستعمرين، يبعث فيّ نشوة غريبة لا أعرف سببها، لقد كنت أظن هنا الوصول إلى هذا، ضرباً من المستحيل... ولكنه أكيد، فقد أصبح شارع البرلمان خالياً من الإنكليز، سياراتهم تسير باستمرار إلى حيث لن نراها...

لعل ما كنت أريد أن أحدثك به منذ شهر هو الصدمة الشديدة التي أثرت بي كثيراً عندما عرفت تماماً (الأستاذ ميشيل) فقد ألقى أربع محاضرات عن الفكرة القومية، كان آخرها «الرسالة العربية» ظهر فيها كلها، لي وللجميع، شخصاً جديداً غير الذي توهمناه.. ظهر أنه سطحي أكثر من اللازم. إلى اللقاء.

صدقي

دمشق ١٩٤٦/٤/١٧

صـديقي..

أكتب إليك والجماهير مزدحمة صارخة في دمشق... والتصفيق يعلو من أعماق النفوس، أمام مرور الجيش المصري - في هذه اللحظة الساعة ٨,٤٥ من الصباح وسيعلو صراخ وهتاف أيضاً لمرور الجيش العراقي والحجازي و... وتغمرني رعشة عميقة وحماس طفولي عنيف، وأشعر بحاجة إلى البكاء من شدة الفرح... من يصدق أن سوريا - هذه القطعة من أرض العرب المقدسة - قد تحررت من الأجانب... بدون قيد ولا شرط. وعلى الرغم من شدة فرحنا، أراني مضطراً إلى الكتابة إليك في مثل هذا العيد، وأنا أعرف عدم استعدادك لأن تسمع شيئاً عن احتفال سوريا بتحررها - كيفما كان هذا التحرر - وأنت في مصر بلاد المآسي والعبودية... ولكن اغتباطنا، لا حد له... ما من حانوت في الشارع إلا وقد رفع علمين أو أكثر، الواحد سوري والباقي أعلام الوحدة العربية. الأطفال ينشدون نشيد لبنان ومصر والنشيد السوري. والشعب - ولا سيما الطبقة البسيطة التي هي جوهر الشعب - تحيط بالجنود العراقيين والحجازيين وهم في الشارع وتغمرهم بالتعاطف. لقد كان يخيل إلي أمام مثل هذه المشاهد أن الأمة العربية بدأت تتحرك. وأن حركتها ستكون كالسيل الجارف، وكالصاعقة ليس الآن... ربما بعد مائة سنة ولكنها ستتحرك. وتسيطر... إنها من نوع الكائنات التي لا تموت، لأنه لا بداية لها.. تعلم ولا شك أن كثيرين يحاولون استغلال الجلاء... وأن بؤس هذا الشعب قد يزيد، ولكن الذي يجب أن يغمرنا بالفرح، هو أنه سيتحمل مسؤوليته بعد اليوم، وأن وجود الشباب المخلصين المتحمسين أصبح له قيمة في هذه البلاد، ليخلّصوا أمتهم من عار الأجيال السالفة، إن كان هناك شباب مخلصون... وبدأت (أتخانق) فعلاً مع

كثير من أصدقائي لأنهم لا يحسون قضية أمتهم، ولا يفكرون إلا بنفوسهم... وبذلك يعيدون صور العار القديم.. فقد قال لي أحدهم: يجب أن يكون هذا العيد، مأتماً، لأن الإنكليز المتمدنين قد ذهبوا ولن يعودوا، ليعلموننا المدنية: فتألمت بصمت. ومثله كثيرون. ولا يبقى إلا الشعب الفقير مخلصاً، يشعر بعروبته... هل نضطر في يوم من الأيام إلى حرق مدارسنا ومعاهدنا العالية، وترك الشعب أمياً يعيش كالبهائم.. ونحن نرى هذه النتيجة...

بعد ربع ساعة سيبدأ العرض ويشعر كل أحد بقلق وعدم اطمئنان، إلى أن الجلاء قد تم فعلاً، وأن ذيوله لن تسبب لنا مزعجات... ولكن الذي لا يشك فيه أحد، أننا أصبحنا أحراراً، إن مجرد وجود الإنكليز كان يوهم الكثيرين أن للإنكليز صلة قوية، أي (أيدي قوية) في السياسة الداخلية أيضاً، ولذلك كان شعور خفي يمنع كل أحد عن العمل، أما الآن فما لا شك فيه أن كل عربي يحمل قوة في هذا البلد، قوة تدفعه إلى العمل من أجل فكرة ما، سيحقق ما يسمح له المحيط بتحقيقه.. ويستطيع أن يطمئن إلى عمله..

أرجو أن لا أكون أزعجتك بهذا الحديث الذي قد لا يهمك الآن، ولكني لا أستطيع الكتابة إلا إليك في مثل هذه الغمرة.

صدقي

دمشق ١٣/٨/١٩٤٦

صديقي..

لم أعهد بنفسي هذا الضعف الذي يضطرني إلى أن ألجأ، وافزع بآلامي إليك، في أشد ساعات حياتي ظلمة، وأفزع إليك بخيالي لعلك تخفف من ظلام اليأس الذي يحطمني الآن. فقد وردت أمس برقية من أنطاكية تنعي أبي ولم أكن أنتظر مثل هذا النبأ، الذي أفقدني في لحظة كل ثقة بالحياة.

أما كان يجب أن أراه قبل أن يموت، وهو الذي تركته منذ تسع سنوات، قوياً يتدفق فيه حنان الأبوة، تدفق الحياة، وودعني وأنا طفل في أمس الحاجة إلى وجوده. وبكى، وهمس والدموع تنحدر غزيرة من عينيه: اذهب يا بني، إن في بلاد العرب مأوى للعرب، لك ولأخيك ولهذا النبي الذي مر بيننا ولم نفهمه... مأوى وراحة.

أما كان يجب أن أراه ثانية، لأحدثه عن المأوى والراحة في بلاد العرب. أما كان يجب أن أراه بعد أن كتب إلينا رسالته الأولى، وقد دعوناه إلى الخلاص فكتب: لا أستطيع. هل تريدون أن أترك قبر جدكم وحيداً.

أما كان يجب أن نلتقي أيضاً عندما داهمه المرض، فكتب: إن أملي بالمستقبل يقوى يوماً بعد يوم. شقوا طريق الحياة بأنفسكم. ولا تخافوا الفقر. ثم انقطعت رسائله حتى الشهر الماضي. خط مرتعش لا يكاد يفهم؛ لست مريضاً. إن ثقتي بالله قوية. لابد من اللقاء يا ولدي، ولو على حافة القبر. ولم يكن لقاء، بل قبر.

وللمرة الأولى يزعزع نفسي الألم، أنا الذي أعد نفسي متحرراً مما يتألم له الناس، ويغزوني ذلك الشعور الذي ألهب أعصابي يوم «طيب»، فمر اليومان الماضيان وكأنني في حلم، حلم قريب، وكأنني طفل، لا أزال أحيا في وطني الأول، وكأن سنوات الاغتراب فترة قصيرة.

وللمرة الأولى أشعر بحكمة وجود العاطفة الدينية، هذه العاطفة العميقة الراسخة رسوخ الحياة على الأرض، لأن الناس يحيونها ولا يفكرون بها. قد يفكرون بمنفعة غيرهم، وبواجباتهم نحو الوطن، وبحاجتهم إلى الحب والفن والمثل العليا، يملون ما يمليه عليهم هذا التفكير الملح الحيوي،..

ولكنهم يفقدون آباءهم باستمرار ويفجعون كل حين بأعز الناس عليهم، وباستمرار أيضاً يفزعون إلى المجهول، إلى الفرار البعيد، إلى صوفية الدين. والويل لمن يتمردون، لأن الدموع نفسها لا تسعفهم، ويدفعون من دمهم وحياتهم ضريبة التحرر من الأوهام. فمتى نتحرر من الأوهام؟

لقد كتبت لك هذه الرسالة مرتين منذ يومين ولم أستطع إتمامها. بل مزقتها لأن يدي لم تقويا على الكتابة وكنت أشعر بحاجة إلى الانفجار.. ولكن حاجتي إليك كانت أقوى...

أنني أتخيل الآن جماهير النادبين في بيتنا القديم، وهم يشيّعون بقلوبهم صديقهم الشيخ، ويبكون ودموعهم تذرف على ولديه البعيدين اللذين أحبهما، وكانت أقصى أمانيه أن يرقد في بيتهما ليلة واحدة، ويهمس: لقد أصبحا رجلين، ولكنه مات، وليس أقسى من أن يستدر الحي الدموع. مات، ومن السخف أن نقول إننا أقوياء لا نعرف للموت رهبة.

ومن الجموح أن نقول إن الرابطة العائلية واهية،

وإن الآباء يجب أن يموتوا ليعيش الأبناء.

وإن الحياة اندثار لكل ما قارب الفناء، ليتمتع ذوو العنفوان وحدهم بحرارة الأرض...

كل ما كان مصدراً للألم ومبعثاً للدموع، ليس إلا رمزاً مقدساً للحياة.

ولذلك، نتألم من أعماق نفوسنا للمرضى، والمشوهين، وذوي النفوس الضعيفة، والخارجين عن محور الحياة، والسخفاء، نتألم لأن قدسية الحياة الكامنة فينا، تُطعن في الصميم، وتسخر سخر الألم، ونتمنى لهم الموت والاندثار، لئلا تستمر مأساة نفوسنا أمامنا، وتجلب لنا الشقاء دون أن نشعر.

ولكن، ليس هذا سبب آلامي الآن.

إنما هو موت كائن إنساني، كيانه من كياني، وصلته بي لا توصف.

إنما هو فردوس وهمي قديم، فقدته وفقدت به آمالي بالقرار.

وأنت، يا صديقي البعيد، لن تستطيع أن تبدد هذا الظلام الكامن في نفسي، الذي يجثم على قلبي ويشعرني بنير الوجود القاسي... العبء الذي نحتقره في صدمة، ونعلم الناس تقديسه. أليس غريباً أن أكون في ضعف من لا يحتمل كارثة، في هذا الوجود. ولكن أما كان يجب أن أراه قبل أن يموت.

صدقي

دمشق ١٩٤٦/١٢/٩

صديقي..

كتبت إليك منذ أيام ولكنني لم أستطع إتمام ما كتبت لشدة المرض الذي يحطمني في هذه الأيام، وها أنا أكتب إليك من غرفة المعلمين الدافئة. المطر ينهمر في صمت وهدوء. وأشجار البرتقال والكباد مثقلة بثمارها ترتعش. وأنسى لحظات قصيرة، آلام صدري ورأسي، وتمر في نفسي قصيدة قرأتها حديثاً (لجون مانسفيلد)[1] ترجمتها لأنها كانت تعبر عما في نفسي:

متعب من الرياح...
متعب أنا. قد تعبت من الرياح...
فيا أيتها الرياح، أيتها الرياح كوني هادئة على نفسي.
أيام القلق والاضطراب الطويل ترهقني بعبئها الثقيل.
والأشجار الكثيفة الناضرة، معراة، بادية النحول.
والغيوم الشاردة في تيه، وقد ضلت الطريق.
ونفسي؛ لم تبق منها بقية.
عندما تعصف الرياح، ينهمر المطر.
ويكف الهواء عن ترداد أنفاسه
وصوت انهمار الأمطار، الصوت الذي لا يتوقف،
يردد ما تقول الأبدية.
والهضاب المنتصبة، أمامي، قريبةً وشاهقةً،
ترسل حولها ذؤابة مضطربة من الضباب.
واللانهاية تثقل بوجودها الخفي، كل شيء...

صدقي

(١) شاعر إنكليزي.

دمشق ٢٣/١/١٩٤٧

صديقي..

لا أعرف ماذا أريد أن أكتب إليك الآن، كعادتي كلما بدأت كتابة تاريخ اليوم في رأس الورقة، ولكن ما بي الآن من البرد، والرياح العاصفة التي تحمل ذرات المطر والثلج من بعيد، على الرغم من زرقة السماء، وإسراع المارين في الشارع الكبير أمام المقهى، والألوان الناضرة الحارة التي لا تلف جسداً يعبر الشارع من حين إلى حين، وبودلير[١]:

Que les soleils sont beaux dans les chaudes soirées!
Que l'espace est profond! Que le coeur est puissant!
En me Penchant vers toi, reine des adorées,
Je croyais respirer le parfum de ton sang.
Que les soleils sont beau dans les chaudes soirees!

وأصداء تشايكوفسكي[٢] التي تتجاوب في نفسي، على الرغم مني كلما جلست وحيداً... كل هذا، يوقظ في نفسي مشاعر لم أعرفها من قبل. ولا أظن أنني سأعرفها ثانية في يوم من الأيام... وأذكرك أيضاً.. هل يستطيع الإنسان شيئاً؟ هل نملك القدرة على أن نوقظ، أتفه ما يمر بنا من إحساس وشعور فتقوم عواطفنا نفسها، وتصوراتنا، مقام نظرة قلقة، أو لون عابر، أو لحن يتلاشى... كل شيء يمكن أن يخضع لنا، إلا ما نسميه الحب، الشغف، الانجذاب، الحماس، ونطلق عليه ضلالاً هذه الألفاظ...

(١) شارل بودلير شاعر فرنسي مشهور.

(٢) بيتر تشايكوفسكي موسيقار روسي.

(بودلير) تائه؛ إنه إنسان ممزق، ضعيف، يخدع نفسه، ويحاول خداع الآخرين، في الألفاظ؛ إنه يبذر الشك و القلق، في كل كلمة يقولها، ويبشر بالعدم، لقد سيطر علي فترة من الزمن؛ أما الآن فأنا لا أبالي بأقواله التافهة، لقد كانت السنة الماضية، كلها، إلا الشهر الأخير، تجربة قاسية لي، تعرضت فيها في عمق، وإيمان، للقلق، الشك بفكرتي، بالعروبة. كنت كائناً آخر، وكان ذلك على أثر دراستي (لماركس)[١] و(غوركي)[٢] بصورة خاصة، وكانت دراسة مشوشة، غير منتظمة، ولكن ملامح جوهرها، كانت في نفسي، واضحة كل الوضوح، تتحرك وتعمل... ولعل أكبر عيب في، أنني لا أستطيع أن أكون تلميذاً إلا لحظات باردة، ولا أعرف الدراسة الباهتة البليدة، لأن بي شيئاً خفياً، يعرض لي كل شيء منذ نقطة البداية: وهذا الشيء هو الذي قربني من «جيد»[٣] منذ سنين قبل أن أستطيع الحصول على كتاب له، لأنه يقول مرة: كانت الكلمة أو الصفحة، تغنيني في كثير من الأحيان. وفي تلك السنة، نظمت ديواناً من الشعر، لم أجرؤ، حتى الآن، على تبييضه، ولا على تلاوته ثانية، وتقصدت ضياع أكثره.

صدقي

(١) كارل ماركس أحد مؤسسي الشيوعية.

(٢) غوركي كاتب وأديب روسي.

(٣) أندريه جيد كاتب فرنسي.

طرطوس ١١/٧/١٩٤٧

صديقتي..

اكتب إليك من مقهى منعزل على شاطئ البحر في الساعة السادسة صباحاً، وقد استغربت كثيراً كيف كنت، هذا الصباح، لعلها أمواج البحر الصاخبة التي يصلني منها رذاذ دائم، أو الريح الشديدة التي تعبث بهذه الورقة وتجعل خطي مضطرباً،.. أو جزيرة «أرواد» التي تبدو في قلب البحر، كطرف لعالم مجهول غريب، مليء بالأسرار، أو الغيوم المبعثرة، المتغيرة الألوان، التي تنبثق من الأفق، وتتولد من البحر، وتوحي لنا، كما أوحت لآلاف الأجيال قبلنا، أن هناك عوالم أخرى، غير هذه العوالم التي تعيشون فيها، وربما كانت أجمل وأسعد... لعل كل هذا ذكرني بك هذا الصباح، فكتبت إليك على الرغم من صعوبة الكتابة... فتاتان، صغيرتان في ثوبين ممزقين يبديان معظم جسديهما السمراويين... تمران أمامي وأمواج البحر تغسل أقدامهما، إن الفترة التي أعيش فيها الآن، تجعل كل منظر وكل ما يجري، ينبوعاً خصباً لإحساسات عميقة، قلما كنت أمر بها عندما كنت في دمشق: البلد العقيم. ذكرتاني بالفتيات اللاتي كان (لورانس) يراهن على شواطئ إيطاليا، ويقول إن بجسدهن من الحرارة بما ليس بالشمس المحرقة، ثم يتمنى أن يقبلهن جميعاً، في أي موضع من مواضع الجسد...

إن البحر يذكر الإنسان دائماً بالحقيقة، ويعيده إلى الصواب والواقع كلما شط به الخيال، لأن الأمواج المندفعة من قلب الماء إلى رمال الشاطئ، تلخص كل ما يمر به الإنسان من نزعات وأعمال، في حياته، الجميل منها كالزبد المتلاشي، والعنصر الفعّال الخصب، ينطوي تحت الموجة التالية، ويعود إلى الأعماق... ولعل هذا سبب يأس أهل الساحل، هنا، من أن يثبتوا وجودهم ويكلفوا أنفسهم جهد أي عمل... فقد قضيت نصف ساعة وأنا أحاول أن أعرف من صاحب المقهى، كيف أستطيع أن أذهب إلى جزيرة أرواد للتفرج عليها، وأين توجد الزوارق، فتارة يقول لي: ماذا تريد أن تفعل

فيها؟ وتارة: بدلتك، يا (بك)، مرطبة من هوا البحر، وتارة، آي، آي، فهمت، أنني أجمع دراهم لأشتري مركب صيد...».

ربما كان سؤالي السؤال الأول من نوعه، الذي يُلقى عليه، وهو لم يتمرن على الجواب عليه، ويجب أن يمر قرن ليعرف كيف يجيب على هذا النوع من الأحاديث.

نور الشمس ينتشر على صفحة الأمواج، والأمواج ماضية في زمجرتها، فالشمس لا شيء بالنسبة إليها... وأود أن أتم هذه الرسالة ولكنني أشعر بنشوة غريبة، طاغية تجعل أفكاري كالهواء، لا سبيل إلى إخضاعها للفظ والقبض عليها...

أرجو أن تكوني في حالة جيدة مقتنعة، على الأقل، بأن الشعور الإنساني هو كل ما يعزي الإنسان في حياته، أي أن سعادة الإنسان وشعوره بقوته، يتحددان بالمقدار الذي يربط فيه نفسه، برابطة واسعة، قوية، من السخف أن نسميها رابطة، بل روح لا سبيل إلى الشعور بها، إلا للراقين من البشر.. عندما تنفصل الصدفة عن البحر، يا صديقتي العزيزة، تتقذف إلى رمال الشاطئ، ولا تلبث أن تموت. لقد أصبحت وحيدة، لا صلة لها بشيء ولذلك لقيت الموت، وعندما تتساقط الورقة عن أمها الشجرة، ينقطع عنها نسغ الحياة، وتجف، ثم تموت، لأنها أصبحت وحيدة، لا تمدها الحياة. ولقد كانت لنا الطبيعة، لنعود إلى حقيقة أنفسنا كل حين. ما من فرد وحيد في بني البشر، كل ينتمي إلى نسغ قوي يمده، ومصدر شقاء الإنسان، هو محاولة انفصاله عن النسغ الأم ولذلك عندما يقول الناس إن الروح خالدة، إنما يريدون أن يقولوا: إن الورقة التي تذبل، تترك فراغاً محلها لورقة ثانية، أكثر نضارة وقوة... ولعل هذا يفسر الروح الفطرية المنتشرة في الكتب المقدسة:

«لماذا فصلتنا عنك أيها الرب.. لماذا تخاصمنا».

«الحق، الحق أقول لكم، من لا يعرفني، لا يعرف أبي الذي في السموات».

إنها أفكار (أساطيرية) نسجها الإنسان، معبراً عن شعور عميق، لإنسانيته... ولعلك تذكرين كيف كان (بيتهوفن)، في نشوة غامرة، عندما وصل

إلى تأليف المقطع الرابع من سمفونيته التاسعة. إن ألحانه تمر كلها في نفسي الآن، كما لو أنني في الغواصة. في بداية المقطع تمر به لمحة، لمحة هي أعمق ما يمكن أن يحسه إنسان من العاطفة: شعور بالألفة، بالخلود، بأن الإنسان عظيم، لا سبيل إلى فنائه، أو الحد من نزعات نفسه، وإحساس بقدسية هذا الإنسان وبأنه الإله الذي لم يكتشف نفسه بعد، ولكنه سعيد بعدم اكتشاف نفسه، لأن مانعرفه يذهب للريح والزمن. وما نجهله يحوي كل قَدَرٍ لنا.. ،من ثم يشعر الموسيقي الأهم، بسعادة وغبطة، فيبتسم، في صميم بؤسه، بين أشباح المرض والجوع و العذاب، وينتهي بـ (ode á la joie) التي قال عنها (واغنر)[١] (سيعود البشر إلى هذا اللحن، كما يعودون بقلوبهم إلى الله). وقد نظم (شيلر)[٢] نفس الشعور وهو الذي أطلق عليه هذا الاسم... وهكذا، يؤلمنا في مثل هذا العصر المشوه الذي فسد فيه كل نسغ، أن يعزي بعضنا بعضاً بالنصيحة التالية،

«لا تكن وحيداً..
كن أمة بكاملها تمر في فرد.
كن تاريخ البشرية كله، يعبر في سنوات.
اعتبر نفسك مسؤولاً عن آلاف الأجيال.
وإذا أردت أن تكون واقعياً في هذه الأيام
فاعتبر إيمانك بالإنسانية سابقاً لأوانه.
لأن الذي لا يعرف نفسه لا يعرف الآخرين...
فلتكن صلتك بنفسك أقوى من صلتك بالأرض...
لأنك راقد في الأرض إلى الأبد، في يوم من الأيام،
أما نفسك، فلن تعرفها إلا قليلاً،
فعش من أجل هذا القليل...
وكن كائناً عربياً».
إلى اللقاء

صدقي

---

(١) ريتشارد واغنر موسيقي ألماني.

(٢) بيرسي شيلر شاعر إنكليزي.

دمشق ٥/١٠/١٩٤٧

صديقتي..

من ركن منعزل في هذا البار أكتب إليك، ويخطر ببالي: الخيال. إن الخيال يلخص كل ما في الإنسان. إنه روح وجودنا؛ وما الفن إلا خيال مرهف. قرأت اليوم كلمة لدافينشي[١] يرويها ناقد فني هي: L'art est une chose mentale [٢]، وهي أقوى تعريف للفن. وهل في نفوسنا ما هو أرحب وأبعد مدى، وأكثر انطلاقاً وإبداعاً من الخيال؟ لقد كانت بداية تحرير الفن في التصوير، ظهور «رنوار» المؤسس الأول للمدرسة التأثيرية. أين ينطبع الأثر في العاطفة: في الإحساس، وصداه الوحيد هو الخيال. ولعل «كورو» العبقري الأول الذي حطم الشكل واللون، وعوّض عنهما بالأشباح والظلال، ليترك لخيالنا مسرحاً رحيباً، ينطلق فيه، ويعبر في انطلاقه عن روحنا نحن، وعما تكن نفوسنا من حياة. وكان «سيزان»[٣] الفيلسوف الغامض الذي حقق بخياله، وإرهافه البديعي، فوق ما قد تنطلق إليه مخيلة إنسان. أعطانا الحرارة في بياض الثلج، لأن الثلج مبعث غبطة لنا، وانفعال وجمال، والغبطة والانفعال روح وحياة. وعلّمنا الحركة والفعالية في مظاهر الطبيعة الجامدة. لأن النبع الذي يستقي منه خيالنا طليق (ديناميكي)، وأوحى إلينا في القبح والأشكال المشوهة، صوراً حية لنفوسنا، لإعجابنا وتقززنا، لحبنا وحقدنا. وكان «غوغان»[٤] التلميذ الراقي للخيال من بعده، فقد هجر أوروبا وحضارتها لأنها سليلة المنطق والقيود، ولا مجال للخيال مع القيود؛ هجرها إلى أجواء

---

(١) ليوناردو دافنشي رسام إيطالي.

(٢) أي أن الفن هو شيء عقلي.

(٣) بول سيزان رسام فرنسي.

(٤) بول غوغان رسام فرنسي.

تاهيتي الحادة الصافية، وأبدع نظاماً جديداً للألوان، لإيمانه القوي بقدرة الخيال وألوهيته. ولعلك رأيت صورة «Et L'or de leurs Corps ... وذَهَبُ أجسادهن...» التي تعطينا، في لون النحاس الجامد، أقوى دفقات الشهوة واللذة. ولعلك رأيت له صورة «النهود، والأزهار» وهذا اللون الأحمر الملتهب، الذي تهبه الطبيعة الحارة لبراعم النهود في فتاتين تاهيتين، وتفتح الأزهار الغضة. كل شيء في الصورة جامد سخيف حتى اللون الأحمر العميق، ولكن الروعة تسيطر على كل شيء... الروعة أي صورة نفوسنا عليها، أي.. الخيال، ولم تستطع أوروبا أن تفهم «غوغان»، لأنه كان يعمل لجيلنا نحن، لهذا العصر المظلم، الذي ينقذه الخيال وحده. فمات في جزيرة نائية، مات جوعاً؛ ولم تكن أروع لوحاته لتباع بأكثر من فرنكات معدودة. أما الآن، فإن آلاف الكتب وضعت عنه، اقتصر واحد منها على أيامه الأخيرة، وفيه يصف المؤلف، كيف عاش غوغان بالماء والخبز واليابس، مدة أسبوع مات في آخره؛ وأحط لوحاته الآن تُباع بالآلاف... وما في ذلك؟ إنه ممن قدر عليهم أن يكونوا طليعة، أن يكونوا بشراً، والبشر دوماً ضحايا...

ثم تظهر عظمة بيكاسو[١] الذي قدر عليه أن يكون نبياً في المستقبل، لقد وهب الخيال إرادة وقوة، وقدم أول تجربة عن قدرة الإنسان على الخلق، على مشاركة الإله الوهمي، الذي خلقه الخيال، بمقدرته وجبروته. أروع صوره الأخيرة كانت لوحة عن «المرأة والقطة». وقد بقي (أخي أدهم) يتأملها ساعتين، وهو مدهوش لانسجام الألوان فيها، وانسياب الخطوط. رآها كثيرون فأنكروها. واعتقد أن كثيرين في أوروبا نفسها من أنكروها ونفروا منها؛ ولكنها خالدة. إن وضع اللون الأحمر المشوب بالسواد في ذيل المرأة، وتراقص الأبيض في الخضرة في الصدر، وتركيب العيون الثلاث في الوجه،... إنه وثبة رائعة من وثبات الخيال... إنه إبداع وخلق. لماذا؟ لا أدري؛ وهل يدري بيكاسو نفسه أن مصدرها هو الإله الجبار: الخيال، العنصر

(١) رسام إسباني مشهور.

الطليق في الإنسان... وقد ظهر أخيراً فنان راق، قد نكون سمعنا به أخيراً، هو تلميذ «سيزان» اسمه Utrillo، لابد أن يمتلك ناحية التفوق، لأنه ينزع بفطرته وموهبته إلى إطلاق ما في أغوار نفسه.. إلى إبداع منظومات جديدة من اللون...

وأمامي هذه الطاولة، وحولها الكراسي الفارغة. كم تبعث في نفسي من الشعر والتأثر، لا لون فيها، وشكلها جد سخيف، ولكن ما بي من انطلاق الآن، في هذه النشوة الطاغية، في رائحة الأرض، يثير في نفسي خواطر خفية، فأعشق فراغ الكراسي وجمود الطاولة... إنه الخيال يا صديقتي البعيدة، إنه كل ما في الإنسان من قدرة على الحياة...

الظلام يطبق على الشارع. والنسيم البارد يرتعش على الأرصفة.. وفي نفسي لهيب لا سبيل إلى انطفائه... وفي كياني حنين إلى الشعر؛ إلى نظم قصيدة، ترهقني قوافيها وألفاظها، وتحرق روحي معانيها وأخيلتها... ولكن يجب أن تُكتب، لأتلوها ثانية على الأقل وأعرف من نفسي ما لا يعرف أبعد الآلهة نظراً...

اكتبي إلي

صدقي

دمشق ٢٤/١٠/١٩٤٧

صديقتي..

عرفت اليوم أنك مريضة فتألمت كثيراً، لأنني استطعت أن أحس ذلك الفراغ الهائل، الذي يرزح تحته كل شيء حولك: وددت من أعماق قلبي أن أكون إلى جانبك نتلو معاً صفحات من (هيلدرلن)[١]، هذا الكائن الجبار الذي أراد أن يعلم الناس القلق المقدس، المرض النبيل:

«الملاح يعود فرحاً إلى المياه الهادئة....

يعود من الجزر البعيدة التي جنى منها ما أراد.

وأنا أيضاً، أبحث عن موطني ثانية،

ولكن ماذا جنيت غير الكآبة؟

فيا أيتها الشطآن السعيدة، التي ترعرعت في ظلالها،

هل تستطيعين أن تؤاسي آلام الحب؟

ويا غابات طفولتي، هل تعيدين إلى نفسي الأمن، عندما أعود؟»

ولكن ما من شيء في الأرض يستطيع أن يعيد إلى نفس (هيلدرلن) بعض الهدوء والسلام، لقد فهم نفسه. وأراد أن يتحمل مسؤولية وجوده... والطبيعة التي كانت أمه الرؤوم:

«كونوا مؤمنين كالإغريق.

أحبوا الآلهة وفكروا في عطف، بالغائبين

اكرهوا النشوة كما يكرهون الجليد!

لا تعلّموا ولا تحددوا

---

(١) هيلدرلن شاعر ألماني.

وعندما يخيفكم الشعراء العظام

فاطلبوا النصيحة من الطبيعة العظمى».

هذه الطبيعة التي وثق بها (هيلدرلن) في أيام الشباب، تصبح أمامه بعد ذاك القلق، أشكالاً جميلة، لا معنى لها:

«هل لك أن تشرق من أجلي ثانية أيها النور الذهبي.

وهل ستهب علي أيضاً من جديد أيها النسيم،

كما لو أنك تريد أن تبارك أفراحي، كما في الماضي.

وهل تحنو علي وتداعبني على الرغم من أنني حزين

جد حزين؟..»

«لم أكن شيئاً، ولكن حياتي المؤمنة كانت تعبر سريعة كالأزهار،»

«والآن، وآاسفاه، كل ما تُرك متمتعاً بالازدهار من أجلي، هذه النجوم وهذا الزهر، يذكرني بتلك الحياة».

وهل قُدّر على كل واعٍ في هذا الوجود، أن يستنجد أخيراً بالعدم:

«تعال إذن، أيها الرقاد الرحيم، إن القلب ليطلب كثيراً».

اعذريني إذا أزعجتك بهذه الترجمات السريعة؛ أرجو أن تكوني في حال حسنة وإلى اللقاء.

صدقي

دمشق ١٦/١/١٩٤٨

صديقتي..

حاولت أن أكتب إليك ولكنني لم أستطع.

إن أعصابي تتمزق، وإنني أوشك أن أنفجر،... إنني أقضي أوقاتي كلها في الموسيقى، وأشعر بأن الحياة لا تعدل شيئاً أمام «لحن الإنسانية» (لبيتهوفن)، إنني في أزمة شديدة، لا أريد الخلاص منها، لأنني لا أزال أؤمن بأن التعزية كلمة جافة، والتماسها خيانة وإثم...

هل قدّر علينا أن نشقى؟

حاولت اليوم أن أكتب إليك ولكنني لم أستطع بل استطعت أن أنظم قصيدتين هما: «الكآبة» و«أحب الكآبة». سأبيضهما لك غداً، لأن القلم يكاد يتحطم بيدي الآن...

لا شك أنك تعانين ما أعاني من الخوف، إسمحي لي أن أسمي الألم والتعب خوفاً، فالحقيقة أننا غير جديرين بالحياة، الحياة التي اختارتنا لنختارها ونكافح ونتحطم من أجلها...

كم أحب الحياة، إن التهرب من إرهاق النفس والأعصاب، وقتل الزمن بالجد والنضال، هو نذالة... ومن يريد أن يتهم بالنذالة؟ من يشعر بفظاعة النذالة والانحراف عن الحياة المقدسة...

وصلتني منذ يومين رسالة من أخي الصغير يصف لي فيها صورة رسمها حديثاً اسمها: «العدم لا يقهر» ويقول إنها تمثل (امرأة تبكي بعد منتصف الليل، وجسدها يضحك)، وسيرسلها إلى المعرض في أنقرة، ويقول في آخر الرسالة: (ماذا تريد أن أفعل يا أخي العزيز، لماذا قدّر الله عليّ أن أعيش مع الألوان والخطوط؟...) ولا أدري لماذا بكيت عندما قرأتها.

وإلى اللقاء غداً.

صدقي

دمشق ١٩٤٨/١/٢٩

صديقي..

أكتب إليك الآن في البيت، وأنا أسمع قطعة موسيقية اسمها «أقاصيص هوفمان» لأوفنباخ[1]، وأشعر بحنين، إلى الجو الذي ينشره حولي أشخاص قلائل عرفوا من هم، في هذه المرحلة من حياة أمتهم، ورضوا بتحمل مصيرها المؤلم، في صمت وألم، وبودي ألاّ أطيل الحديث إليك ولكن هيهات، فلن تمض لحظات حتى يعود (أوفنباخ) إلى الواقع الصخري، الذي هو فيه، ويدرك أن زمان الأقاصيص قد زال، ولن تصدمه بعد الآن إلا المآسي.. وأشعر بالعجز حتى عن إتمام هذه الوريقة؟..

إنني الآن في ساعتي الفراغ الأسبوعيتين، ولذلك تراني أنعم بالراحة قليلاً في الشمس الهادئة، وأرى أمامي من الوقت ما يشجعني على تبييض بعض الأشعار، ولا سيما قصة «ربيعة» أو «العربي سيد القدر» التي انتهيت من نظمها منذ أيام... لقد قررت أن لا أنتبه منذ الآن لما يجري حولي، وأن أعيش في المريخ، لأن ذلك أدعى للنشاط في مثل هذه الظروف التي تخضع الإنسان «للامبالاة». أرجو أن تكون في حالة جيدة، وأرجو أن تكتب إليّ في أقرب وقت لأنني أحب أن تكتب إليّ الآن.

سمعت أن حمص تستعد للقيام بمظاهرات ضد الشيوعية كما فعلت دمشق فهل هذا صحيح؟ ستبقى وصمة عار، يا صديقي العزيز، في تاريخ بلادنا كل مظاهرة من هذا النوع، لا لشيء، إلا لأن الذين يقومون بها (شبانلوط)[٢] وهل سمعت أن الطلاب في دار المعلمين اعتدوا على «الموصلي» وضربوه. وقال لهم مدير المدرسة، إنني أطمئنكم على أن الأساتذة الشيوعيين، سيحالون إلى اللجنة التأديبية، وينالون الجزاء، هل سمعت بما يقص من هذا النوع في النصف الثاني من القرن العشرين، في زمن يموت فيه الملايين من أجل حرية الاعتقاد؟..

وإلى اللقاء القريب

صدقي

---

(١) جاك اوفنباخ موسيقار من أصل ألماني.

(٢) غير جديرين.

دمشق ١٩٤٨/٦/٢

صديقي..

لم أستطع إتمام الرسالة الماضية. لأنني لا أقوى على إرسال ما أكتب إليك، خوفاً من أن تأتي فجأة. أنهيت البارحة مساءً «الباب الضيق» بالعربية، وهي قصة رائعة (لأندريه جيد) من ناحية واحدة فقط، الناحية التي تعلم القلق، وتوحي الشعور بالرعشة الواحدة... وربما كانت هذه الناحية ما لم يذكره «اندريه جيد»، لأنه، في هذه القصة، غير متحرر من ربقة الفن، وذلك ضعف من رجل مثل «جيد» يريد أن يبني جيلاً «يعيش... البداية والنهاية» تقليديتين إنه في «السمفونية الريفية» أقوى بكثير.. قطعة من لورانس لتتم الصفحة:

كم أشتاق إلى أن أكون وحيداً على زورق! أية ساعة «ذهبية» تضفي النشوة على قلب الإنسان حينئذٍ... وحيداً... متنقلاً من موجة إلى موجة، ومن جزيرة إلى جزيرة إلى الأبد... لا أعرف الاستقرار....».

صدقي

دمشق ٩/١١/١٩٤٨

صديقتي..

جلست لأكتب إليك هذا الصباح فتلهيت بنظم هذه القصيدة:

الرحيـــل

في زرقة السماءِ،
ودفقة النور على الجدارِ،
ورعشة الندى على الأشجارِ،
والخضرة الدكناءِ؛
صوت يناديني: إلى الرحيلْ.»

في زرقة السماءِ،
وهبة الأنسام في الصباحِ،
وفي شرود السحب الجماحِ،
تمرح في الفضاءِ؛
صوت يناديني: إلى الرحيلْ...

.. هيا إلى المسير،
إلى بلاد الخمر والنساءِ،
إلى بلاد اللذة الرعناءِ،
للغيب، للمصير...

حيث الحقول دمعة تسيل.

... للصين، للبحارِ،

للهند، أرض الجوع والحرمانِ

حيث تموت فكرة الزمانِ

حيث لهيب النارِ

مقدس لأنه جميلْ...

هناك يحيا الناس

لا وعي يدعوهم إلى الألمْ

ولا يحسون سوى العدم

فيترعون الكأس

بالسم والخمرة،

ففيهما التحرير للذليلْ.

في زرقة السماءِ

وفي زئير الرعد والرياحِ

وفي انطلاق السحب الجماحِ

تسير في الفضاء

صوت يناديني: إلى الرحيل».

صدقي

دمشق ١١/١٢/١٩٤٨

صديقي..

أكتب إليك في الصباح من البرازيل، أفقت صباح اليوم باكراً، وألجأتني غرفتي الباردة إلى الخروج. فاتجهت رأساً إلى الموسيقى، لسماع قطعة سمعتها عشرات المرات يوجّهها «ريمسكي كوساكوف»[١] إلى القيصر. ولم أزل انتظر الفرصة لأتحدث إليك عنها:

أحقاد هائلة تستحيل إلى دموع، ودموع تستحيل إلى أنات ساجية؛ تصدر من ينبوع أزلي. الينبوع الذي يصدر منه كل مقدس في الوجود، ويصدر منه الإنسان. الجوع والبكاء، هما رسالة ذلك الشعب المحتضر الذي يتكلم باسم الموسيقى، ويجتذب من أنات المرضى والجائعين، والأطفال الذين ينتظرون عبثاً الغذاء، والثكالى اللواتي تموجت ظلمة القبور في صدورهن، والشعراء الذين لا يملكون القدرة على الكلام، والألحان الحبيسة التي تستحيل إلى رجفات مريرة، ودموع حارة.. من أنات هؤلاء جميعاً ينادي هذا الموسيقي قلب القيصر ـ المترف، إن كان للمترفين قلب حي.

كم يسحرني هذا اللحن. وأشعر بألم شديد. وعزاء عند سماعه، وأتذكر كل ما رأيت وعرفت من مآسي جوع واضطهاد، ويؤلمني أكثر من كل شيء، أن شعبنا الذي يعاني تلك المآسي، لا يعرف «القيصر» الذي يوجه إليه النقمة. الإقطاعية، الاستعمار، وثمة «قياصرة» كثيرون، لا وجود لهم إلا في الألفاظ المجردة في بلادنا؛ أعداؤنا مفاهيم لا نعرفها، ولا نعرف أين توجه السهام؛ بينما عرف الشعب الروسي مصدر شقائه.

أتألم كثيراً عندما أذكر هذا، لأنني أحس «القيصر» في أعماق نفسي، وأؤمن أن لا خلاص لنا، إلا إذا عرفنا أن انحراف العربي عن رغبته العربية، بما في الحياة الحرة، هو كل مشكلتنا. ولكن من يستطيع أن يقول ما لا يقوى اللفظ على احتماله، وما تعتبره الأذن «مهازل» عند سماعه.

---

(١) موسيقار روسي.

كورساكوف ينادي القيصر باسم الجائعين والعبيد. وباسم الجائعين والمستعبدين والأذلاء من شعبنا، يريد أن ينادي المنقذ... ولكن من ينادي هذا المنقذ؟ من هم الطغاة الذين نئن تحت نيرهم؟ الإقطاعيون. الزعماء، المستعمرون، لا إنهم جميعاً عبيد مثلنا، وأذلاء. لأنهم هم أيضاً في انحراف..

سيكون النداء موجهاً إلى الأرض، إلى هذه الأرض العربية، لينبت فيها من جديد غار الأبطال، وغابات الأساطير وصحاري النبوات... يجب أن يغزو اللهب المقدس شعبنا، من جديد، ليولد العالم ولادة جديدة، لا تضيع فيها عن وجهه، سمات العالم الأزلي الرحيب، الذي نحسه بأعماقنا؛ ونطاطئ أمام رهبته ما لا نملك ما نقول.. إلى هذا العالم وجّه كل نداء صارخ، في الموسيقى والألوان والأشعار، وحياة البطولة والإبداع؛ فلنوجه إليه النداء، نحن العرب، أقرب الناس إليه، وأكثرهم تمتعاً بدفء إشعاعه...

هذا هو السبيل الوحيد للإنقاذ.

اعذرني، فأنا في الحقيقة الآن محموم، وقد سمعت منذ هنيهة اللحن الرابع من السمفونية التاسعة، واللحن الأخير من تشايكوفسكي[1]...

وإذا ما أطلقت لخواطري العنان، شعرت بحاجة إلى البكاء، ولكن أين الدمع؟.. البكاء الأليم، لأن أمريكا وحدها، هي التي قُدر لها أن تقود زمام العالم... أمريكا بلاد العقم والتسلية السافلة، وبلاد القرود، والكافرين بقدسية الإنسان...

أي مصير ينتظر الإنسانية، وقد سُد «الباب الضيق» بالحديد وركام الأقذار؟ ما الذي ينتظر العالم من الآتي، بعد اندثار آلهة الأرض، واحتضار «عرق» تشايكوفسكي وبيكاسو..

كم أحقد على أمريكا، وكل ما هو أمريكي...

وكم أحس حنيناً من الأعماق إلى تأمل صورة «عباد الشمس» (لفان غوغ)، بلونها الأصفر، وخطوطها الصفراء، صفرة حية نارية، ينسكب عليها نور شمس بعيدة، شمس أقاصي آسيا والمحيط الهادئ...

صدقي

(١) موسيقار روسي.

دمشق ١٩٤٨/١١/٢٧

صديقتي:

أكتب إليك من المكان الذي كنت أكتب إليك فيه البارحة مثل هذا الوقت. الغيوم لا تزال في السماء، والصداع في رأسي، ويخيل إلي أن جبال الأرض كلها تجثم على صدري. وأشجار الكباد مثقلة بثمارها تنتظر.

لم أعد أفكر بشيء يا صديقتي العزيزة، وجودي كله يندمج في هذه الألوان الكامدة، وهذا اللون الأصفر الخصب. غبطة خفية تغمرني، تشبه كآبة الحب، وتشعرني بأنني أشعر بوجودي، بوجود مستقر ملتهب، لا يؤلمه القلق، ولا تهدأه أمواج الشك. إن هستيريا «العربي» ـ تلهب كياني من جديد. بعد كل استقرار. فأحس الطبيعة، بأشكالها وألوانها، تنظر إلي نظرات الصقر، التي يلقيها كل عربي، في مظهره البائس؛ وهذه الأشجار تخاطبني بلغة واضحة فصيحة، تعبر بها في بلاغة، عما في نسغها من أسرار. إنها تعلمنا الإخلاص للجوهر، للصميم، للنسغ، ولكن هل نستطيع؟ أليس من الحقارة لنا، نحن الذين يعيشون فوق هذه الأرض، أن يعلمنا اللون والشكل ودفقات النور، المنسكبة في هدوء وطمأنينة على الكائنات، الحنين القدسي إلى كل مقدس في وجودنا؟...

البرازيل مساء. ذهبوا جميعاً للنزهة، ومنعتني برودة الجو من الخروج. وقت رائع للكتابة إليك. لا أرى في الشارع، إلا النساء وألوان ثيابهن المغرية، تفنى رويداً رويداً في اغبرار المساء. تحت يدي قصة جديدة نالت جائزة (Stendhal) في فرنسا، اسمها بيغماليون لـ (Jean Dutourd). نالت الجائزة، على ما اعتقد، لأن عنصرها الأساسي، هو النزعة الإرادية الخالقة، التي أذكر أننا تحدثنا عن ظهورها في أوروبا، عندما كنتِ هنا، فنان في قبرص

ينحت تمثالاً، لفينوس.. وترى الإلهة فينوس في السماء، أن التمثال لا يشبهها، وأنه أكثر رشاقة وأقل إغواء، لغريزة الرجل، فتحاول إهانة الفنان، بإعطاء التمثال الحياة، لتشعر الفنان بأن الحياة والحب فوق الفن، ولكنها تفشل، لأنه يفر من تمثاله الحي، ليتزوّج هذا التمثال الجميلَ، أحدُ أصحاب البنوك. إن ما يكمن في الرجل من لمحات مبدعة، وحياة مثالية راقية، تتيح له الاستغناء عن أشكال الحياة، بما فيها المرأة. وهكذا استغنى (بيكاسو) عن الأشكال المألوفة، ومهد لذلك (اندره جيد) بالتبشير بالقلق.

صدقي

٢ كانون الأول ١٩٤٨

صديقتي..

لا أعرف أين أنت، ولكن الجو الرائع الذي يحيط بي يدفعني إلى الكتابة إليك. الساعة الثالثة بعد الظهر، و«الندوة» خالية هادئة، إلا من قليل من محبي الهدوء والصمت، وذرات النور الدافئة تسبح في الفراغ، في رفيف عذب، أكاد أسمع أنغامه الخفية..

منذ ساعة انتهيت من قراءة «الغريب» (لألبير كامو)[١]. إن جو هذه القصة، وإحساس مؤلفها، يحيطان بي الآن، على الرغم من أنني سئمت هذا النوع من الأدب القاتم.. ولكن الإحساس الفني يمحو عن هؤلاء كل خطيئة، ويغفر لهم كل تجديف. أرجو أن تقرأي هذه القصة، لأنها تكاد تكون رداً على (اندره جيد) في «اللاأخلاقي». إن «جيد» هو الخصم الأقوى والأعظم للوجودية، كما ظهرت لي، من خلال الأقاصيص التي قرأتها (لسارتر)، (وكافكا) وكامو وغيرهم.. ويخيل إلي أن الوجودية لا تستطيع أن تثبت وتعيش كفلسفة، لأنها مذهب ناعم مريض، لا سبيل إلى توضيحه ودعمه، إلا بالإحساسات المرهفة: التصوف أو البوهيمية أو الحب أو الجريمة.. بينما تقف فلسفة (جيد)، إن استطعنا أن نسمي أفكاره فلسفة، قوية جبارة، يتحطم عليها كل مرض. إن (جيد) خير من يمثل الكلاسيكية المعاصرة، الكلاسيكية، أي الصحة والدفء كما يقول (غوته)..

صدقي

(١) كاتب فرنسي من أصل جزائري.

١٩٤٨/١٢/١٥

صديقتي..

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. صمت عميق رهيب في غرفة باردة موحشة. منذ ساعات وأنا أحاول الرقاد ولا أستطيع. ثم ذكرتك، فتناولت هذا الدفتر الصغير لأكتب إليك. وفي مثل هذه الساعات التي تسكب في النفس حنيناً إلى الشعر، يذكر الإنسان أعز ما له في العالم، ويحاول أن يستند على شيء، في هذه الهوة العميقة التي يحفرها الصمت حوله..

لم ننته بعد يا صديقتي. نحن البداية، في عالم تلتف النهايات فيه حول نفسها، لتغور إلى الأبد، وهذا الذي أمامي بداية أيضاً.. «غوغان» في لوحته التي نعرفها: «ذهب أجسادهن».. لا أدري لماذا أذكره كلما ذكرتك... إن عالماً جديداً حاراً، يتفتح في هذه اللوحة أمام النفس، عالم أجساد غير بشرية، أجساد وجدت لتبدع الحياة في تفتح جوارحها، لتبدع السماء نفسها. إن (غوغان) يقول في هذه اللوحة: إن الجسد وجود مطلق. وكل ما يتصل بدفئه ولونه وحرارته مقدس. الإنسان الحقيقي بداية... ولكن الإنسان المعاصر صورة للحقارة، لأنه اعتبر نفسه صورة مثلى للمخلوقات الحية، اعتبر نفسه نهاية لها، إن جوهر هذا الإنسان غير إنساني... فمتى يصبح كائناً خالقاً غير مخلوق... متوحشاً كالموت...

نحن أناس متوحشون يا صديقتي. ولذلك لن نمتّ إلى الإنسانية بصلة، ولذلك كنا بداية، ولكل بداية صليب وإكليل من الشوك!

صدقي

١٩٤٨/١٢/١٧

صديقي..

كان علي اليوم أن أترك التعليم لأذهب إلى الجامعة، ولكن شعوراً غريباً دفعني إلى الذهاب إلى المدرسة، بعد هذه العطلة الطويلة. خرجت في الصباح عليلاً، ضيق الصدر، يهدمني السعال.. فحياني في الطريق صوت أحد تلاميذ الصف، ووجهه المتهلل، فوددت من أعماق نفسي أن أعانقه، وأعيش في صحبته إلى الأبد. إن للأطفال وقعاً إلهياً في نفسي. إنني أتنسم عبير الخلود عندما أراهم في الصباح.

قال لي في إخلاص: لقد اشتقت إليك كثيراً يا أستاذ.. فامتلكتني غبطة لا حد لها من هذه المجاملة، كأنني طفل. ولكنني ما لبثت أن أنبت نفسي على هذا الابتهاج الصبياني...

أهكذا ينتهي بنا الأمر، نلتمس في ألفاظ الأطفال البريئة، حياة وإيماناً.. إن الحياة تنهار من حولنا، وكل شيء يموت، وأأسفاه، ما عدا رعشة الحب الرهيبة...

صدقي

١٩٤٨/١٢/٢٠

صديقي..

كثيراً ما أخلو إلى نفسي في هذه الأيام، فأراني أمام صديقنا (ر...) وجهاً لوجه. إنه مخلوق فنان، وأجمل ما فيه أنه صعب جاف أمام النفوس الصغيرة. تمنيت من أعماق قلبي اليوم أن يكون إلى جانبي، فأقول لنفسي: هذا هو! تأملي أيتها النفس كيف وجد. انظري كيف حاول القدر أن يحطمه، فلم يظفر منه بغير الاحتقار والألم... الاحتقار: إنه العمل المشرف على الأرض، والألم: إنه الحب.

عفواً إذا استغرقت في ضباب. أحس رغبة عميقة إلى التضرع والسجود...

من لي بنزهة وادعة هادئة، في صباح ربيعي ناضر، في إحدى مزارع البن في البرازيل، إن في الطبيعة ملجأ جميلاً لذوي الأنفاس القلقة..

صدقي

١٩٤٨/١٢/٢٤

صديقي..

الساعة الثانية عشرة والنصف. أجراس الكنيسة تتجاوب في صمت الظلام البارد، معلنة ذكرى ميلاد المسيح، فأشعر بحاجة إلى الكتابة. كان هذا اليوم صاخباً مليئاً بالمشاعر. رحلة إلى صلخد لحضور حفلة عقد رايات الصلح، وتمتع عميق بجمال قرى جبل الدروز السوداء الوادعة، وهي تتوارى تحت الثلج والضباب.. وعودة إلى دمشق في الظلام، بعد أن رقد فيها كل إنسان، ما عدا الخمر، وقلب المسيح الذي لا يموت.. ساعات من الاستغراق الكئيب في سماع «سيزار فرانك»[1] أقوى من عبر عن الإيمان المسيحي، بالموسيقى الصافية الجميلة.. لماذا لا يستطيع الإنسان أن يبكي عندما يريد يا صديقي؟.. ثم تشرد ليلي لا نهاية له، حول نوافذ السكارى والضاحكين والمعربدين، ممن ينعمون بالعائلة والدفء، والكأس المليئة..

لم أنم. ويخيل إلي أنني سألبث في هذه النشوة حتى الصباح.

الصمت وصفحات من الإنجيل:

اقرعوا يفتح لكم..

تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو..

أنتم لا تعرفونه، أما أنا فأعرفه، وأحفظ قوله..

سيلبث النور معكم زماناً قصيراً..

وسأل رئيس الكهنة يسوع عن تعاليمه وتلاميذه. فقال يسوع: أنا كلمت العالم علانية.. لماذا تسألني أنا.. هؤلاء يعرفون ماذا قلت. كل من هو من الحق سمع صوتي. وعندما قال هذا، تقدم منه خادم ولطمه قائلاً: أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟..

وعندما وضع على الصليب قال: أنا عطشان..

تحياتي إليك.

صدقي

---

(١) موسيقي فرنسي.

١٩٤٨/١٢/٢٦

صديقتي..

الساعة الحادية عشرة مساء. الصمت يخفيني. عمدت إلى دفتري أحاول نظم بيت من الشعر، فغمرتني كآبة الموت..

أنا عليل. وبين العالم فراغ. العالم كل ما يستطيع أن يتحرك، ويتكلم. أمامي مقعد فارغ. وفي الخارج أمطار وبرد.. يا لغبطة نفسي!

ليس الشعر فراغاً يا صديقتي، إنه شيء ثمين، ولكنه مليء بالعذاب.. ليتني أستطيع الآن أن أسمع «سيبليوس»[١].. الصفحة الأولى فقط من «فنلنديا».

الثانية ليلاً. يجب أن يكون الموت شيئاً رائعاً. إنه يتصاعد من أعماق نفسي، كما تتصاعد الحياة.

صدقي

---

(١) موسيقي فنلندي.

١٩٤٩/١/١

صديقتي..

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. نشوة وصداع يملآن رأسي وحواسي. ماذا فعلت اليوم؟ لقد كنت معي يا صديقتي، على الرغم من أنني كنت في قلب الضجيج والعربدة، مقامرة خاسرة كالعادة، وجلسة هادئة حتى الساعة الحادية عشرة. وبعد ذلك اندراج في الضجيج مع الرفاق..

وفي كازانوفا[1] كانت البلادة صورة لا تمحي من ذهني إلى الأبد، لا سيما عندما أطفئ النور، في تمام منتصف الليل، وصرخ أولاد الذوات المترفون من كل جانب، في بلادة وحقارة.. ثم بدت راقصة سمراء لا معنى لها. ثم خرجت في جنون، كأنني هارب من داء. إلى أين؟.. إلى غرفتي، كانت أجراس الكنيسة تدق في نشوة.

الحياة شيء ثمين يا صديقتي. إني أعبد الحياة، كل شيء حولي الآن يرتعش وينبض بحب عميق، لا سبيل إلى إحساسه..

صدقي

---

(١) اسم ملهى.

صديقتي..

المساء. نشوة غريبة لا أعرف مصدرها. قضيت اليوم ساعتين في سماع الموسيقى عند أحد الأصدقاء.. سمعت فيها قطعة جديدة اسمها «السمفونية الملونة» لسيزار فرانك. إن هذا الموسيقي الهادئ يملأ نفسي إعجاباً وحناناً في هذه الأيام. وهو في هذه القطعة يكاد يكون طفلاً، طفلاً مؤمناً، يعرف كيف يطرد الألم بالدموع.. إنه أحد أولئك القلائل الذين استطاعوا أن يحولوا الكآبة المسيحية إلى غبطة سماوية..

ثم «السمفونية الإسبانية» للالو.. و«لالو»[1] فنان عاطفي، لكنه أحمق، على ما يخيل إلي، لأنه لا يستطيع أن يضمر شيئاً، ويفخر بكل شيء حتى بالفشل.. والسمفونية أثر فني خالد من موسيقى الكمان..

ثم «تانهاوزر». إن (واغنر)[2] لا يزال العملاق بين أقزام. لقد خط طريق الموسيقى المبدعة لعدة أجيال طوال.. وفي تانهاوزر وحدها يبدو واغنر على حقيقته، لأنه فيها يتخلص من كل قلق وتشاؤم..

هل تصدقي أن (واغنر) قد أصبح من أخلص تلاميذ شوبنهاور،[3] في آخر أيام حياته؟ لم أصدق ذلك إلا بعد أن سمعت تتمة «البرسيفال[4]» ولا سيما القسم الذي سماه (واغنر) نفسه (آلام القلب)..

كانت زرقة السماء عميقة رائعة في هذا الصباح، بعد ليل مطير عاصف. أفقت وفي أعماق روحي حنين إليك إلى أن أشعر أنك إلى جانبي عندما أتأمل هذه السماء الصافية العميقة...

البارحة لم أستطع الرقاد. وتوهمت أن «سيبليوس» هو سبب ذلك. سمعت له بعد الظهر قطعة «فنلنديا» وهي أروع أثر من الموسيقى الحديثة.

---

(١) لالو موسيقار فرنسي.

(٢) فاغنر موسيقار ألماني.

(٣) فيلسوف الماني.

(٤) البرسفال وتانهوزر أعضم المؤلفات الموسيقية لفاغنر.

إنها طريق آمن جميل يجب أن يسير فيه الإنسان، بعد تشاؤم و(اغنر) وجنونه، ولكنه طريق حزين لا هدف له ولا غاية.. يسمى (سيبليوس) «مارد الشمال» وهذه التسمية خير معبّر عن روحه... إنه يمثل الروح الأوروبية التي تحاول الإرادة أن ترمي بآخر سهم فيها... الإنسان أقوى من القدر، ولكن الموت أقوى منه، وحيث يعيش الموت يعيش الظمأ... هذه فلسفة (سيبليوس).

❖ ❖ ❖

«الندوة» الساعة الثانية عشرة مساء. هدوء عميق، وغناء صادح فيه رجولة من مغن مصري.. إن في صوت المرأة نكهة من الجنس، من الجسد. أما الرجل، إذا وهب صوتاً جميلاً، فإن إشراقاً ممتلئاً رائعاً يتموج في نشيده..

أبدأ من أجل رأس السنة. لماذا يغمرني العذاب كلما اقترب العام الجديد. في السنة الماضية وما قبلها، كنت في أشد ساعات الألم، في مثل هذا اليوم.

لست شقياً يا صديقتي، ولكنني مسيحي. والمسيح طبيب غير بارع، لأنه جُرح دون أن يضمد، عُريَ دون أن يغطى..

الإنسان جبان. هذا كل شيء.

❖ ❖ ❖

الساعة السابعة صباحاً. من كلمة لسيبليوس:

«عندما تمس يد دخيلة أجنحة الفراشة، يضيع بهاؤها، وتتحول إلى غبار.. هكذا كل ما أنتجت من موسيقى».

ومن كلماته أيضاً:

«.. ذات يوم، شممت رائحة غريبة في الطريق.. ولم أكد أصل إلى المنزل حتى استغرقت في صمت، كانت تضطرب فيه تلك الرائحة، ولم تلبث أن انبعثت في نفسي قطعة موسيقية، اسميتها «قطرات الماء» لأنني علمت بعد ذلك أن تلك الرائحة، كانت رائحة قطرات ماء».

أما كان الأجدر يا صديقتي أن يسموا سيبليوس، اسماً أقل ضخامة من «مارد الشمال» الذي أطلق عليه، لا..

تحياتي إليك..

صدقي

١٩٤٩/١/١٤

أيها الصديق..

ليس م.. بطلاً، إنه فنان. كنا أمس في اجتماع، وكنت منقبض الصدر، متألماً أشد الألم لسبب، أرجح أنه نبأ علمته عن موت مائة وخمسين طفلاً من اللاجئين من البرد، في الأردن.. وكانت في رأسي مشاريع ملتهبة جنونية، أخفها أن أعتزل نهائياً ولا أكلم أحداً على الإطلاق. أقف أمام نفسي وأبدد وجودي ساعة فساعة، في أغوار ظلامها العميق. وتكلم م.. في ألم وعاطفة، فهدأ صفاء نفسه كثيراً من آلامي.. وفي كلمتين غنيتين، أجاب بهما على سؤال، أعادني إلى الأمن والاستغراق الجميل في الكآبة..

صدقي

١٩٤٩/٢/٣

صديقي..

لا أعرف كيف استيقظت في نفسي فجأة غريزة الجوع.. الجوع إلى كل شيء. أفقت في الصباح جائعاً، وعدت إلى الجوع بعد ساعتين، واستغربت ذلك، لأنني أمقت الطعام كما أمقت شيئاً دخيلاً على نفسي.. إن في الجوع إحساساً عميقاً مرهفاً يشبه لذة الموت.. إنه إرهاق الإحساسات يا صديقي، يملك نفسي في هذه الأيام، ويخيل إلي أن هذا بداية انهيار وجحود، بكل ما هو فكر...

المرأة كالعمل. كلاهما بعثرة لئيمة لألوهية الإنسان، إنهما مقبرة الحرية. والحرية، الجوع. الجوع إلى كل شيء، إلى الصمت، إلى الشعر، إلى الانطواء تحت رحمة الظلام العميق....

أنا الحياة يا صديقي.. في هذا الصباح شممت رائحة عطر من عابرة، غثيان عنيد، لم يهدأ إلا عندما متعت روحي وأعصابي طويلاً براحة عرق الجسد. كل ما أعطاه الإنسان للإنسان حتى الآن، كان فساداً وتشويهاً. وهذا هو المعنى الحقيقي لصلب المسيح وجنون (واغنر).

صدقي

١٩٤٩/٢/٢٨

صديقتي..

الصباح: نشوة هذا اليوم نفحة مقدسة. رياح عاصفة وغيوم مبددة، وسماء عميقة الزرقة، وصداع سهرة البارحة. في واجهة إحدى المكتبات لمحت كتاب «الفراديس المصطنعة» لبودلير[١]، وفيها صفحات من «لقد تعرى القلب..» دفعت آخر ما معي من المال ثمناً له، وانطلقت في هذا الجو الجميل كأنني أحمل كنزاً رائعاً.. إنني أعرف (بودلير) وأوشك أن أقرأ هذا الكتاب صفحة صفحة قبل أن أفتحه.. ولكن الحياة هي في اللون والإرهاف.. هي ذلك العظيم (شيلي) الذي كان يشم رائحة اللون ويمتلكه دوار..

صدقي

(١) شاعر فرنسي شهير.

دمشق ١٩٤٩/٢/٣٠

صديقي..

اكتب إليك من مقهى الحي، بعد منتصف الليل. الأمطار تتهمر في هدوء حزين، والليل عميق موحش، وأحس أنني نبتة عتيقة اقتلعت جذورها، وقذفت في سفح بعيد. الشعور بالاغتراب هو وحده يغريني بالكتابة إليك، نسميه اغتراباً وهو في الحقيقة، ثورة في أعماق الروح تدفعنا إلى حب التشرد والمأساة: لا مأوى ولا زاوية مضيئة. فقد خيل إلي طويلاً، أنه بالإمكان أن أمد يدي إلى شيء «حقيقي». ولكن عبثاً. لماذا لم تكن لنا موهبة البحث عن السعادة يا صديقي؟ لماذا نحطم بيدينا كل شيء جميل؟ هل الجواب عند تلك الوجوه الشاحبة التي نسيناها؟..

إكتب إلي أن استطعت فأنا وحيد في هذه المدينة الكبيرة..

صدقي

دمشق ١٩٤٩/٥/٤

صديقي..

لم أكن أتوقع رسالة منك عندما ناولني الآذن رسالتين في منتصف الدرس. ولم أكن أتصور أنني سأكتب إليك، لأن أعصابي في هذه الأيام مرهقة... مرهقة حتى الإعياء، تشعرني باستمرار بلذة البلادة والراحة.. وبودي لو أترك هذه الورقة بيضاء، خالية من أية كلمة، إلا التاريخ، لأنها تكون عندئذٍ مسرحاً خصباً لنفسك المضطربة المتدفقة، التي لا يؤلمها إلا الشكل واللفظ... بيدي «لورانس»[١] يزيد حنيني إلى أن نجلس في البرازيل، فالأحاديث تخفف كثيراً من حرارة الأفكار والعواطف... لورانس:

«أشجار البرتقال مثقلة بثمارها الناضجة... تطل على أمواج البحر المرتعشة، في نشوة عميقة خفية.. ومن اللون البرتقالي، «الشهواني» الذي يحترق رغبة إلى الأنامل النهمة،... من هذا اللون الأرضي العنيف، تنساب في أعماق نفسي، وفي أعصابي، موجة تشبه دبيب الخمر... تنبئ بلذة قريبة خصبة، ولكنها لا تلبث أن تزول... تزول عندما تبدأ...».

في البندقية:

جلست على مائدة الإفطار، في الصباح، قبل أن تبعثر الشمس نورها الدافئ على البحر الساكن، وعلى الغيوم المبددة المتجافية،.. جلست للإفطار... وكنت أشعر بجوع شديد... وكانت صاحبة الفندق قد أعدت لنا طعاماً دسماً... ولكن هيهات... إنه جوع سرمدي... إنها لحظة غريبة من الانجذاب والاستغراق... ليست أرضية، ولا تمت إلى السماء بصلة... إنها

(١) د. هـ. لورانس كاتب مشهور.

من عالم مجهول، من زمن لم نكتشفه بعد، أبدي التدفق، حار النسمات... نهضت، دون أن أمس الطعام الشهي.. إن أعصابي لتكاد تحطمني...

في مسيّنا أيضاً:

«هنا، على هذا الجسر المزدحم بالناس، وقد مر جنديّان يخفران مجرماً.. لعله قاتل قد أُدين... هنا، يحلو لي أن أتذكر «أوسكار وايلد»[1] وهو مجرم مُدان أيضاً... لماذا لا يستطيع الإنسان أن يقول كلمته و يمضي... وهل له غير هذه الكلمة على الأرض... (أوسكار وايلد)!... لقد أصبحت الحياة جريمة... أجل... إن الحياة لفي خطر...».

على الباخرة:

«إنها قروية من باليرمو... ترتدي ثوباً صارخاً، تصخب فيه ألوان «روبنز»[2] الشهوانية... تناولتُ الإفطار على طاولتي... ولم أكن أرى إلا «زندها» الممتلئ البدين.. يرتفع وينزل... وبودي لو أقبله» إلى اللقاء.

صدقي

---

(١) كاتب وشاعر إنكليزي.

(٢) بول روبنز رسام بلجيكي.

دمشق ١٥/٨/١٩٤٩

صديقي..

كتبت إليك منذ أيام، ونسيت أن أرسل ما كتبت، لأن الإعياء كان يسيطر علي، يثقل نفسي، وها أنا أكتب إليك أيضاً لأتذكرك فقط، وقد تركت أخي في البيت، أمام لوحة جديدة يرسمها، اسمها الغروب في الغابة، الدموع في عينيه، وذلك غريب منه، والشحوب يحطمه، واللون الأحمر الصارخ يرتعش أمامه على غيوم الشفق، ورؤوس الأشجار. لم يكن له صديق ليكتب إليه، ليقول له: إن كائناً عزيزاً كان أمله الوحيد في الحياة أن يراني، قد مات، مات دون أن أراه، ودون أن يعرف أنني أرسم على لوحات كبيرة كما أراد لي، أو أن يتصور أين أعيش، وأن الجذوة لم تخمد... بل كان له صديق، صديق عزيز، كان الوحيد الذي عرفه في هذه البلاد وأحبه، ولكنه بكاه منذ أيام، لأنه، هو أيضاً، مات إعياء، في العاصي، بعد أن تواعدا على اللقاء في العيد، ذلك هو (محمود صالح)، وقد جمع الآن عشرات الصور التي أهداه إياها، ليرسم له صورة، صورة للصديق الوحيد... ولذلك عرف اليأس الصامت. وبكى إياه بصمت ودموع صامتة، وانصرف إلى اللون، اللون الأحمر الملتهب، لون الثورة والنار والدم والمآسي...

طلب إلي البيطار[1] اليوم أن أعد صفحة أدبية «للبعث» ولم يلحظ الإعياء، الإعياء القاتل الذي يوشك أن ينفجر في أعصابي، وأنا جالس، أمامه. ولكني كالآلة، كالآلة الجامدة، اخترت القطع المترجمة، وكتبت مقالاً لأعرف به «ويلز»[2] بمناسبة وفاته، ودفعت كل شيء إلى المطبعة وكأنني لم

(١) الأستاذ صلاح البيطار.

(٢) هربرت جورج ويلز كاتب إنكليزي.

أفعل شيئاً، أو كأنني في حلم... ويلز؟ من السخف أن تكتب عنه شيئاً، لأنه طفل إنكليزي، إنكليزي بارد، وجد ليسلّي الجمهور بأفكاره الوهمية، وقصصه الخيالية؛ ولا أدري إذا كنت أشرت في المقال إلى فكرته السخيفة التي يقول فيها «إنني الآن ويلز في الخمسين من عمري، أقف، وأتذكر نفسي عندما كنت في العشرين، هل أشبه ويلز الشاب. لا، إن ويلز الشاب قد مات، مات منذ ثلاثين سنة، بوجهه الناضر، وعينيه البراقتين وحيويته، فمن العبث إذن أن أنظر إلى صوره، كما أنظر إلى نفسي لأنه غريب عني، غريب بأفكاره وجسمه وكل شيء فيه. وهكذا يبشر ويلز بفلسفة عقلية قوية طويلة، بأن «الأنا»، حوادث مستمرة متجددة، وأن الجزء الذي ينقضي فيها يموت نهائياً. ألا نرى أن الأب أقرب إلى ابنه الفتي، من نفسه، عندما كان شاباً مثل ابنه... فلسفة عقيمة دخيلة علينا، نحن العرب».

اعذر لي هذا الجموح فإنني كالآلة، لا أعرف ما أكتب، ربما كتبت إليك غداً.

صدقي

دمشق ١٩٤٩/٨/٢٩

صديقتي..

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. الرقاد العميق يغفو مع النائمين، وأنا أتوق إلى المجهول، إن الحياة تخمد فينا رويداً رويداً، والشعلة التي تلهب نفوسنا توشك أن تنطفي، والزمن العابر يضع في طريقنا من الحقائق عثرات، فمتى نثور؟ متى نجعل التمرد والنار قانوناً مقدساً لهذا الشعب المحتضر؟ إنني أشعر بالتشاؤم الذي يغمرني الآن بأمواجه القاتمة، وألتهب. يجب أن نبدأ، يجب أن نبدأ، نبدأ ولو بالغناء، فاللحظة التي تضيع بعد الآن تنهال علينا لعنات من الأجيال القادمة.... نشرات، مبادئ، جرائد، محاضرات، أفكار... كلها أوهام تخلقها نفوسنا، تبعد عنا مواجهة الحقيقة، مواجهة الإنسانية المهانة الحقيرة، التي تعيش في بلادنا، الجمهور الزاحف، والأسياد والعبيد، والكرامة الطعينة. ولم نكن لنبالي لولا أن العقم ينفذ إلى صميم البزرة، أمام عيوننا، والأرض التي تضمنا، تختنق وتحبس للديدان، ينابيعها النقية... متى ننفجر؟ لينفجر حولنا كل شيء، فالانتظار تعزية باردة.

أكتب إليك، وأمامي قصة «السيدة السوداء» لبوشكين[1] أكاد أنتهي من ترجمتها، وهي رجعة غريبة إلى المعجزات، ونضال مثير بين الإنسان والقدر، تلخصها كلمة «دانتي» التالية: «خبز الغريب مرير» إلى اللقاء.

صدقي

---

(١) ألكسندر بوشيكن ـ شاعر روسي.

دمشق ١٥/٩/١٩٤٩

صديقي..

كنت أكتب إليك منذ مدة، عندما علمت أنك قادم إلى دمشق، وقد بقيت بانتظارك طوال هذه الأيام أرجو أن لا يكون المرض قد عاقك عن الحضور؛ لماذا لا تكتب إلي؟ لأن آلامي لا تنقطع، ويخيل إلي أنها تتدفق من ينبوع سرمدي في أعماق نفسي. هل الألم والحياة من مصدر واحد؟ بل إن الألم أقوى من الحياة، وأعمق. إنه وليد القلق، القلق على وجودنا، على إخلاصنا لهذا الوجود. وعلى اقترافنا لهذه الخطيئة. إن وجودنا على هذه الأشكال المشوهة الحقيرة، وتعبيرنا بها عن روح أمتنا الجبارة، خطيئة لا سبيل إلى التكفير عنها. ولم أكد أصدق أن آلام النفس تسبب ألم الجسد وعذابه، إلا في هذه الفترة، وهل ذلك لأنهما شيء واحد (النفس والجسد)؟

قدمت طلباً لفحص البعثات مكرهاً، لأن كثيراً من المشاكل تضطرني إلى أن أرغب في مجيء أمي وأختي إلى هنا، إلى قرية ما، ندفن فيها بقية هذا العمر. ودخلت الفحص والصداع مستمر؛ ولم أكن أعتقد أنني سأقع في مشكلة، أحار حتى الآن في وقوعها، وأفسدت علي الفحص كله. فقد وزعت أسئلة الترجمة عن العربية، فترجمتها ترجمة جيدة وعندما انتهيت منها، طلبت بقية الأسئلة فقال لي (الكناني)[1] لقد أُعطيت لرفاقك، ولن تحصل عليها، أي أخرج من الفحص. والواقع أنني ذهلت عن الأسئلة أثناء الترجمة، فمزقت الأوراق وخرجت. وقد أقنعني أحد الأصدقاء بإتمام الفحص، وكان موضوعي في علم النفس متقناً. ولا يؤلمني هنا الآن، إلا لوم الرفاق، لأنهم كانوا يريدون أن أقول لرجل حقير: «أتوسل إليك، أعطني الأسئلة». وهكذا فأنا لا أنتظر النتيجة،..

---

(١) أستاذ في الثانوية.

كيف أنت في هذه الأيام؟ ماذا تنوي أن تفعل هذه السنة؟ أرجو أن لا تكون مستمراً في لحظات العدم المفروضة، فالحياة أرحب من أن نأسف فيها على شيء...

إنني أقضي أوقاتي كلها في المطالعة. وقد انتهيت أمس من تلخيص كتاب «مدارس الغد» لديوي[1]. وهو مفيد جداً في بلادنا بصورة خاصة، لأنه يوضح خطوات عملية أولى، يمكن القيام فيها لإصلاح التعليم. وأضف مجموعة من الأشعار نظمتها خلال هذه السنة.

اكتب إلي.

صدقي

(١) مفكر له فلسفة تربوية معروفة.

دمشق ٢٥/١٠/١٩٤٩

صديقتي..

خيل إلي منذ لحظات أن روحي مثقلة بالهم، فنهضت إلى هذا الركن من المقهى لأكتب إليكِ؛ ولا أعرف ماذا أريد أن أكتب، سوى أن الذي دفعني إلى ذلك، كلمة من قصيدة (لهيلدرلن) كنت أتلوها، هي: «مثلما تكون متعتي، يكون نشيدي»، وتذكرت أن هذه الكلمة قد تلخص إلى حد كبير، المبدأ الذي يجب أن يسير منه كل منقد، ولكن من يستطيع أن يقول هذا، فيقربنا قليلاً من أصالة حياتنا، ويهب الشكل، الروح التي عبّرت به عن حياتها؟ وتذكرت أنكِ كنت تقولين: أريد أن أعيش نشيدي، وهل ثمة انقطاع بين الحياة ومظاهرها، وهل يستطيع أن يقول الإنسان: «أريد، ما دامت الدفقات الحية المتوثبة تتجدد باستمرار وتغزوه، وتتخذ الأشكال التي أعدها، سبيلاً لها. والأشكال الشوهاء تستطيع أن تسمم كل سحر في الجمال. إن الحياة أقوى منا، ونحن نحيا كل شيء، كل ما يصدر عنا، على الرغم منا، ولكن أنقى المياه يستهويها الدود عندما تمر في المستنقع، وما نظن أنه انقطاع، ليس إلا وهماً وعجزاً، فمتى نخلق الأشكال؟ متى نعيد إلى اللون الحياة التي وهبتها إياه الطبيعة؟ متى تنشق لعيوننا في زرقة السماء العميقة، طريق النسر؟» لماذا قالوا: «كلُّ رمزٍ فان». أما كان حسبنا أن نقول: إن كل رمز قد وجد، وأنه استمد وجوده من نور الإنسان، فهو أبدي لا سبيل إلى فنائه، إلا إذا انحط ضعاف الإيمان بالحياة، وشكّوا بسرمدية الإنسان. كل رمز أبدي، لأن اللهب المقدس يبقى إلى الأبد حياً فيه.

قال الأستاذ ميشيل أمس، الكلمة التي كنت أنتظر أن يتوصل إليها بعدما كان: «إن تجربة قاسية واحدة في عملنا، يمكن أن تفيدنا أكثر من قراءة آلاف الكتب». وسوف يقول بعد حين: إننا بحاجة إلى شباب يحسنون في

أتفه مشاكل أمتهم، خطراً يهدد حياتهم. لا نريد تلاميذ يسمعون ويرددون، ولا أطفالاً يتحمسون للأخيلة والأفكار؛ بل نريد مجانين يحسون الاضطهاد في كل ناحية، ويرون الأفاعي حيثما اتجهوا، وينتظرون بعد كل نسمة عابرةٍ، عاصفةً مدمرة. نريد أن يعرف الناس نفوسهم، ولو أدى ذلك بهم إلى اليأس؛ لأن ما تتمتع به أمتنا من قدسية، يجعل من الصحراء الميتة الجرداء، حياة وعنفواناً.

لم أستطع إتمام الرسالة البارحة لكثرة الرفاق في المقهى؛ وها أنا الآن أكتب إليكِ من الصف. التلاميذ يكتبون في وداعة وصمت هامس. والشمس تغمر الغرفة بالدفء والنور. وفي دمائي أشواق جامحة إلى الاندفاع في لحظات الغبطة التي أشعر بها الآن. لقد وجد الإنسان ليشعر فقط بأنه موجود، بأنه كائن حي تسير فيه لمحات من القدسية، لمحات تتيح له التمتع بالنور واللون والغيوم المبعثرة، التي تمتزج روحي في شرودها عبر الفضاء، والصداقة والحب. لماذا لا يتمتع الناس بنفوسهم؛ بغريزتهم العميقة الجبارة، التي تغريهم بالجمال، وتهبهم الأجنحة؛ وهل يستحق هذا الجيل أن يسمى ناساً؛ هذا الجيل الذي يلتمس كل شيء من الخارج، ووجودهم مجموعة آراء الناس فيهم. حبهم منافسة لحب غيرهم، ومسعاهم في سبيل المال الذي يخلق الأمجاد في هذه المرحلة القاتمة. تصوري أن القصيدة التي لا يعجب بها الناس، تصبح وصمة عار على ذلك الكائن المنعزل الذي نظمها؛ وأن الفكرة التي لا تلقى صدى ترهق صاحبها وتقتله. لماذا؟ لأننا لم نزل ضعافاً وكياننا الإنساني المتراجع منذ زمن قديم، لم يستوف بعد شروط نموه وتكامله. يقولون: عندما تصبح لنا قيمة في المجتمع نبدأ العمل. وعندما تصبح لهم قيمة في المجتمع، ينظرون بذعر وخوف إلى الأعمدة «المسوّسة» التي يستند عليها مركزهم، ويشفقون عليها من الانهيار. ويصبح عملهم الأكبر في إتقان التوازن. لم يعودوا يخافون الجوع والفشل والإهمال، كما كانوا يفعلون قبلاً، بل إن التنين المخيف الذي يرعبهم، هو العمل من أجل بلادهم، من أجل الإنسانية المحتضرة في نفوس الشعب الذي يكمن نبل الطبيعة في دمه، والذي يظهر مع ذلك، في جلد الحيوان.

متى نحررهم من الخوف يا صديقتي.

يجب أن تشكري الجرس الذي دق قبل أن أنهي ما كتبت إليك في الدرس الماضي، فأنقذك من فلسفاتي التي اعتذر لك عنها؛ وأنذرك بكثير منها في المستقبل، إن أصررت على الصمت، وعلى عدم الكتابة إلي. يجب أن تكتبي إلي يا صديقتي، ولو كلمات لا معنى لها، في المقعد الثاني، طفل قلق، مضطرب النظرات، لا ينتبه إلى الدرس مطلقاً، اضطررت أن أعلق أمامه صورة ملوّنة براقة، للرسام الألماني(Richter)، تمثل بحيرة، وذروة يكللها الثلج، وتضيع فيها طريق شعرية، تدفع الروح إلى المجهول، إلى ما وراء الثلج والأشجار المزهرة، والمياه النقية؛ وقد استعاد الطفل كثيراً من الهدوء، واتخذ شروده شكلاً هادئاً وديعاً، إنها الطريق، الطريق الضائعة في ذروة الجبل، هي التي أعطت لأفكاره مستنداً وسبيلاً.

صدقي

دمشق ١٩٤٩/١١/٢٤

صديقتي..

في نفسي مرح عميق لا أستطيع إخفاءه، وكآبة محببة أتمنى أن تستمر، ويخيل إلي أنني سعيد. ولا أستطيع كتمان ما بنفسي عنك، فأتناول القلم وأعتزل ركناً هادئاً في البرازيل، وأكتب إليك، ولا أعرف ماذا أريد أن أكتب. أما المرح فهو جد غريب، لأنه صادر عن تجدد مشاكل في حياتي هنا، لا أستطيع إلا أن أقابلها بالمرح. واعذريني إذا أقحمتك في مشاكلي الخاصة، لأنك الوحيدة الذي أفزع إليها في اطمئنان في كل حين. وصلتني أمس رسالة من أهلي يقول فيها أخي إنه راحل بعد يومين إلى الجندية في البحر الأسود، وأن منظر العلم التركي أصبح يثيره كل الإثارة: ولكنه على الرغم من هذا، مسرور كل السرور لأنه سوف يعرف انسجاماً طبيعياً نادراً لسواد الصخور وزرقة البحر، في تلك البقاع الوعرة، ويقول أيضاً إنه سيضطر إلى الانفصال عن عمله، الذي يعول به عائلتنا، وقد تهدد الفاقة هذه العائلة بعده. وفي نفس الوقت تقول أمي في رسالتها: لا تهتم بنا. نحن سعداء ما دمتم تحيون في هدوء. ثم رسالة خاصة من أخي الأصغر، عن إتمام اللون الأصفر بخطوط وأشكال عمودية، لأن الصفرة توحي الاضطجاع والاتساع، ثم تردد عنيف عن الذهاب إلى العراق؛ لأستطيع إرسال ما يعيش به أولئك البائسون؛ ثم آلام شديدة في قلبي لا أستطيع لها رداً، وصداع عنيف. ولمحات خاطفة مؤلمة عن شعور العرب المفقود، بأنهم عرب. وخواطر «هستيرية» طائشة. وبرقية من حلب برفض القنصل العراقي هناك التأشير على الجواز، إلا بعد مخابرات طويلة من شأنها إضاعة الوقت ورفض قبولي هناك. والدوار يلح. وثرثرات أصحاب البدلات المكوية (غير المرقعة)، من حولي، عن السفر في الطيارة والباخرة...

ماذا تقولين؟ هل أسافر؟ ولكن لا يحق لي أن أسألك هذا السؤال، لأن مجرد تمكني من الذهاب، أصبح في ريب إلا بعد طويل من العذاب. فلننسى هذا الآن. لأعود إليك. لماذا لا تكتبي إلي وأنت تعلمين أن خطك وحده يستطيع أن يهبني من الاطمئنان، الشيء الكثير. إن رفاقي هنا يحاولون عن قصد أو عن غير قصد، تسليتي وإزالة هذا الشحوب والقلق الظاهرين، اللذين يخفيهما المرح، الذي اعتدته. ولكنهم عبثاً يحاولون. لقد أصبحت الضحكات ترهقني. ولم يعد يعزيني غير الخمر. ولكن أين الخمر؟. لقد مر علي يومان لم أنم حتى الصباح، تستيقظ فيهما ذكريات قديمة غريبة، وتشعرني بأن اللحظة التي تمر علي تزيدني تحرقاً واشتياقاً إلى عالم مجهول لا وجود له هنا، ولا سبيل إلى أن أدنو منه مطلقاً.

التلاميذ في الباحة يلعبون في جلبة واندفاع. والغيوم الكدراء ترزح تحت عبء السماء، وتوشك أن تطبق على الأرض؛ وفي رأسي صداع، صداع أليم قاتل، يوشك أن يكون انفجاراً متى انفجر؟ وتخمد هذه الشعلة الكابية الذابلة.

الطبيعة راكدة. لا نسمة ولا حركة. ويخيل إلي أن الغيوم المغبرة الممتدة قد ارتشفت كل حياة في الجو. وعلى نافذة الصف أكتب إليك والتلاميذ يرسمون في تهامس وحذر. وأمامي الحديقة الخامدة. أشجار الكباد مثقلة بأشجارها الصفراء، تنتظر العاصفة التي تقذف بها إلى أمها الأرض. والغيوم كدراء بلون التراب، تنتظر النسمة الباردة التي تكرهها على الانهمار غيثاً على الأرض. وبنفسي «أشياء» كثيرة خفية، غامضة، ليس لها اسم ولا يطلق عليها لفظ، تنتظر هي أيضاً، اليوم الذي تنفجر فيه، وتتبدد، وتنهمر.. وتستقر على الصدر الذي غذاها، والأم التي تعهدتها، الأرض.

كان علي أن أرسل إليك البارحة هذه الرسالة ولكنني لم أستطع إنهاءها، وأخشى أن أستمر على الكتابة فيها أياماً أيضاً، لأن شعوراً صوفياً عميقاً يتصاعد من صميمي، فأشعر بحاجة إلى المسيح، وأتناول الإنجيل مرغماً، واعتزل هذا الركن القديم من المقهى. وأكتب إليكِ؛ وبودي لو تكوني إلى جانبي نتلو معاً كلمات ذلك النبي الإلهي:

هذا هو الخبز الذي نزل من السماء
ليس من أجلي كان هذا الصوت بل من أجلكم.
الآن نفسي اضطربت.

لست في العالم، ولن أكون فيه بعد الآن، أما هؤلاء فهم لا يزالون من العالم.

أيها الإله البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فقد عرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك (أرسلتني)، وعرّفتهم باسمك، وسأعرّفهم بالحب الذي أحببتني به، ليكون فيهم، وأكون أنا فيهم.

نفسي حزينة حتى الموت.....

جلس على الطاولة المجاورة الآن (المقدسي)، وكان أستاذاً لكثيرين، أستاذاً لا يعلم غير القلق. فالقلق هو أبلغ درس يُلقَّن في هذا الجيل.

بشر به (المسيح) و(طرفة) و(المتنبئ)؛ وعلّمه (هيلدرلن) و(نيتشه) و(غوته)، وبعثه (سيزان) و(فان غوغ) من جديد، و(اندره جيد) و(لورانس).

القلق إنه كل ما في حياة الإنسان. ولا قرار لنفس الإنسان.

صدقي

انطاكية ١٩٥٠/٧/٢٨

صديقتي..

الآن، وبعد مرور هذه الأيام الطويلة عليّ وأنا في هذه المدينة الجميلة، أكتب إليكِ لا أعرف أين أنتِ. وقد كنت عازماً على أن أكتب إليكِ كثيراً وكثيراً جداً، في هذه الأيام القلقة، التي أرى نفسي فيها أشبه بمريض، لا سبيل لشفائه. وعبثاً حاولت العودة إلى الهدوء في انطاكية، لأن الجمال فيها يحرك في أبلد النفوس، شعور اللانهاية. وما كان يشقيني إلا مثل هذا الشعور. هنا يقتحم الجمال كل نفسي، من كل مكان، من الجبال التي تكاد تضيع في الأفق، إلى الأشجار الناضرة، التي ترتعد تحت لمس الصيف، إلى الشلالات الرائعة، والممرات الظليلة بين غابات الصنوبر والسنديان، وأقف حائراً من أين أبدا، وكيف أنظر وأتأمل؟ لا حدود لعالم الجمال ولا بداية، إنه يتدفق كالحب في الطبيعة، وذلك سر شقاء الشعراء الذين لا يمسّون منه إلا المظهر العابر... أجلس على ضفاف العاصي، مع النرجيلة التي أصبحت صديقي الوحيد، وفي ظلال غابة الدلب هذه، أشعر بفيض من الروعة، يتدفق في صدري. الماضي والحاضر والمستقبل، تأخذ كلها أشكالاً جميلة فاتنة، وأود من أعماق نفسي لو كنت إلى جانبي. وأخي نعيم يرسم إلى جانبي، وقلما يجلس دون ريشته، وكأنه في عالم آخر سام، وعلى صخور الشاطئ القذرة، تبعثر الصيادون الصغار، كأنهم في حلم قديم، وصحارى مديدة من البساتين تمتد إلى الأفق، وأحاول أن أقرأ وأفكر، ولكن هيهات!.. وأكتب إليكِ وأنا أتعثر، لأنه من الصعب أن يطمئن الإنسان إلى اللفظ في مثل هذا الاستغراق... والبارحة مزقت نصف رسالة كتبتها لنزار، لا أعرف لماذا، لقد حدثته عن الحزب، بعد أن نفضت يدي منه، وتصورت الألم الذي سيعانيه، عندما يقف أمام هذا الحديث، كنت أقول له إنه من الجريمة أن

نقف بعد الآن في ضباب الانتظار. إن شيئاً أقوى وأعمق من النضال ينادينا، هو الحياة. والتبشير بالحياة هو النضال الحقيقي، لأننا به وحده، نستطيع أن نخلق المناضلين، أرجو أن لا أكون قد عكرت عليك هذا الجو بهذا، ولكن من الصعب أن ينسى الإنسان بسرعة، ما كان كل وجوده.

كنت أود أن أكتب إليك منذ وصولي عن أشياء كثيرة، لولا الجمال: فلي العذر في ذلك،.. أتيت إلى هذه المدينة، فإذا الفقر والشقاء والفساد، تتنفس في كل مكان، وقضيت أسبوعين، وأنا أشم رائحة الجوع والتفاهة، في كل زقاق وشارع، وفي منزلنا، رأيت اليأس يبسط جناحيه كالقدر... ولولا هذه الوجوه الناضرة، الغضة التي يطالعني بها الأطفال والصبايا الجميلات. لكان يخيل إليّ أنني في مقبرة. وليس أجمل من الحيرة و الحزن، في عيون لا تفهم شيئاً...

تحياتي وأشواقي.

صدقي

السويدية ١٩٥٠/٧/٢٩

صديقتي..

البحر صارخ كالوحش. ورمال الشاطئ، تمتد ملساء رائعة الجمال إلى الأفق وسحر غريب. والجبل «الأقرع» قد أسلم نفسه للغيوم. والنشوة تنساب في كل فج من فجاج الأرض... أي حنين وأية دموع توشك أن تغمر عيني....

منذ أيام كنت في الإسكندرونة، وكنت أرى الناس، في حوانيتهم، والصغار العراة، في موج البحر، والخليج الأزرق الهادئ، والجبال العذبة التي تطل عليه، كنت أرى كل هذا، جزءاً من فردوس أرضي، ومن أعماق قلبي وددت لو أقبل رمال البحر، لأشكر الطبيعة على ما منحتني من شعور بروعتها...

أين ستقضي بقية الصيف؟. إنني عائد إلى سوريا في أوائل آب. بعد أن عزمت على الانصراف إلى الكتابة نهائياً. كعزاء أخير. فهل أراك في دمشق إذا كتبت إليك منها، تحياتي إليك وإلى اللقاء.

صدقي

دمشق ١٢/٣/١٩٥١

صديقتي..

منذ شهور وأنا أجهد نفسي للكتابة إليك فلا أستطيع، على الرغم من أنك تعيشين معي أبداً. إنك بالنسبة إليّ، كفكرة عظيمة، لا يستطيع الإنسان أن يخلص لها إلا إذا لزم روح الجد والمعاناة، ولذلك كثيراً ما يخشاها. ووجودك برر لي حياتي في يوم من الأيام، ودخلت وجودي، حين أوصدت دون العالم كل باب، فلي العذر إذا أصبحت أتهيب الكتابة إليكِ، إلى هذا الحد.

منذ شهور وأنا قلق. ولكن نفسي في ازدهار وتفتح غريبين. أحس أشياء في أعماقي تولد وتنمو يوماً بعد يوم. شعور غامض. أفكار بسيطة، أبيات من الشعر، رغبات غريبة، فيتدثر العالم أمامي، كل يوم، برداء جديد. أفزع إلى نفس المكان الذي جلست فيه أمس، فأراه قد تغير، فأحزمة نور الشمس، والظلال المرتعشة، وذاك الدفء الذي ينتشر في كل مكان، كلها تبدو وكأنها وجدت الساعة فحسب، لكي ينطفئ كل ما فيها من سحر بعد حين. كل ما في العالم يعيش حولي، ويلتفت إليّ في حنان وحب كأنه يطلب إلي أن أتحدث أو أكتب عنه شيئاً، لأنه لا يقوى على ذلك. منذ أيام، كنت على ضفة بردى، كانت الشمس مشرقة، وزرقة السماء عميقة، وأسراب من الغيوم في كبد الفضاء، ووقفت أمام مشهد فتيات «يتعابثن» أمام النهر، والتفتت إلي منهن سمراء بلون الطيب، وخيّل إليّ أنني دخلت في عالم آخر، وأن إطاراً يحيط بهذا المشهد الرائع، وتمنيت أن تكوني معي، لأقول لك إن سرّ مأساتنا أننا لا نستطيع أن ندخل ضمن هذا الإطار. سيبقى العالم موضوعاً لنا، موضوعاً ينبض بالجمال والحب، ولن نجرؤ الدخول إلى محرابه، وأية مأساة في أن يريد القلب أن يكون موضوعاً، ولا يستطيع، موضوعاً كالزهرة الناضرة، أو الصخرة، أو الطريق المتعشب... هل وجدنا لنضع إطاراً فحسب، هذا ما يشغل كل تفكيري في مثل هذه الأيام. هل نستطيع أن نجعل عواطفنا وتحسسنا للجمال، مصدراً للقيم في الحياة.

أرجو أن لا أكون قد عكرت صفو هدوئكِ، ولك أن تختاري بين حديث كهذا، وبين السياسة، وهي الآن في نظري جريمة. إن النضال نضالنا، هو

شيء يناقض السياسة، ويختلف عنها، وسبب المشكلة التي يعانيها عملنا الحزبي، هو أننا فهمنا النضال سياسة. النضال هو خلق مشكلة، هو نقد قاس، وتمرد على وضع، والسياسة هي آخر باب يدخله المناضلون، لأنها حل مشكلة، ومداراة وبناء. فهل جاء وقت البناء؟ وأين اللبنة الأولى؟... أحاول حديثاً كهذا مع (ميشيل)، فأراه متفائلاً أكثر مما يجب. إنه رجل قوي نضالي، بكل معنى الكلمة ولكنه مسيحي الروح، والمسيحية، بمعناها الاجتماعي، عمل، وتفاؤل، وسلامة، وإيمان بينابيع الروح المبدعة، التي تعيش فينا كرمز لتحررنا من الخطيئة، وخضوعنا للناموس...

ماذا تفعلين هذه الأيام؟ إنني أقرأ كثيراً. والتمس كثيراً أن كل ما في الوجود وسيلة لعواطفنا، للحب. والحب هو الغاية المقدسة التي نتوجه إليها، لأننا في ظله، وحده، نبدع، ونجدد وجودنا، ونهب الزمن أبدية وحياة. وما دام الحب هو الغاية، فأي عالم عابر، سريع العطب، هذا الذي نسميه عالم المرأة، أو عالم الجمال...

أرسل إليك قصيدتين نظمتهما على طريقتي - إذا جاز هذا التعبير - أرجو أن تجدي فيهما بعض التسلية:

زرقة الآفاق

زرقة الآفاق خلف زرقة بحر..
وغيوم شردت في الأوج، في تيه وذعر
وحسان يتعابثن على ضفة نهر
يفترشن النرجس الناصع، في دل وطهر
يا صبايا. أنا سكران، فمن منكن خمري؟..

المقعد

أنا في غرفتي، وفيض من الأوهام، ينثال من خيالي المشرد
وأمامي الجدار، كالطلل الباكي، وفي الركن مقعد يتنهد
ودخان يغور في هوة الصمت، ويرتاح عندما يتبدد
وكياني، يكاد ينهار في الوهم، ولكن خفقة تتمرد
يا لقلبي، كم فيه من أمل حلو، وكم فيه من حياة تتردد

صدقي

دمشق ١٩٥١/٦/١٠

صديقتي..

إنني في هذه الأيام أحاول، ما استطعت، أن أقطع كل ما بيني وبين العالم من صلات: لأن شعوراً خفياً غريباً باقترابي من الموت، يملأ كياني. ومن الحقارة أن يموت الإنسان قبل أن يتطهر من أدران الناس، والأشكال على الأقل... أعرف أنه لا حقيقة إلا لما له في الأرض جذور. ولكنني أعرف أيضاً أن كل ما في الأرض من إشراق، هو ملك لنا. وبهذا نكون سادة العالم...

الصمت، الصمت. إن في تبدد الدخان، سراً عظيماً: عندما تشعر بأن كل لحظة من حياتك تموت فقيرة شاحبة، في هذه الساعة الرهيبة من ساعات الكآبة والفراغ. إن بي شهوة إلى الامتلاء، هي كل ما في الحياة من قوة وحرارة: وأتصور في غبطة وجمال، الساعة التي أغمض فيها عيني على صور يوم صاخب، لا أعرف فيه التعب والإعياء... ولكن ماذا نفعل بهذا الكيان المحطم الذي أصبحت الأفكار وحدها، تضنيه وتدفعه إلى الفناء...

وصلتني رسالتك أمس فملأت نفسي غبطة وفرحاً، ولا أعرف كيف أعبر لك عن أثر هذه الكلمات الحارة في نفسي. كان حسبي، أنني أقرأ فيها صدق إنسان. ومن المأساة أن نتلمس الصدق تلمساً كما لو أنه أمر صعب المنال.

أين ستقضي الصيف؟ وماذا تقرأين في هذه الأيام. أنا في الغالب سأسافر إلى أنطاكية في مطلع الشهر القادم.

إلى اللقاء.

صدقي

دمشق ١٩٥٢/٢/٢٠

صديقي..

يمتلكني وأنا أكتب إليك بعد هذا الانقطاع الطويل، شعور غريب بأنني كائن آخر، غير ذلك الشخص الذي كان يكتب إليك أفكاره القلقة وهمومه منذ سنوات. إن ارتباطاً جديداً بقضية أمتنا قد خلق مني إنساناً آخر. ولعل الفشل الذي عرفته حركتنا، هو الذي فعل ذلك. منذ سنة وأكثر وكل تفكيري وأحلامي متوجهة نحو قضية وطننا. ويخيل إلي أنه من المستحيل على أي منا أن يقف على الرصيف، إن شهوة المصير القومي - إن صح هذا التعبير - تغزونا يوماً بعد يوم، وتجعل كل سعادة واستقرار واطمئنان في حياتنا ضرباً من الانتحار والموت. وأنا، هذه الحقيقة تعيش في نفسي الآن أكثر من أي وقت آخر، لأنها العنصر العفوي البسيط الذي فرض نفسه على وجودي، وحال بيني وبين التفكير بأي طريق آخر. وقد تعلمت منك ذات يوم، في معرض حديث لنا عن (اندره جيد)، أن لا أقرأ إلا الكتاب الذي أشعر بحاجة إليه؛ وقد رأيت نفسي خلال هذه السنوات الأخيرة، غير مبال بأي شيء لا يتصل اتصالاً وثيقاً، بذلك الإيمان العفوي. ولكن البيت بُني من أجل ساكنين آخرين على ما يبدو. هذا سر اضطرابنا وآلامنا منذ أن ربطنا مصيرنا بقضية وطننا.

أكتب إليك من مقهى الجسر، أمطار هادئة في الصباح، ووجوه إنسانية حية تعبر الشارع في حيرة صادقة. إن سكان هذا الحي يبعثون الشفقة والحب في نفسي. إنهم على جانب من اليسر، لكن الآلية تسحقهم سحقاً. وراء كل وجه، أتمثل عقلاً مخرَّباً، وفي كل صدر، رئة معطلة عن استنشاق النسيم النقي. في كل يوم يروحون ويجيئون كما يفعلون اليوم. ويبدو لي أن طراز وجودهم هذا سيستمر على هذا النحو ألف سنة، دون أن يتغير فيه

شيء ويخيل إلي أنهم يمثلون مأساة العرب أصدق تمثيل. إن العرب في طبعهم شعب مسلم. وقد ذهب كل ما علمهم إياه الإسلام، من نضال وحركة، إلا الإسلام نفسه. وبعثهم ليس إلا إعطاء مضمون جديد معاصر لدينهم. وما يزال ثمة مجال واسع لذلك. إن ابتعادنا عن الشعب قد أفقدنا نقطة البداية. فلكل شعب أطر هي أنماط حياته، والتعبير العفوي عن وجهة نظره في الحياة، هي الشرط الأساسي لنهضته وتحرره، وكل تجاهل لهذه الأطر أو تحطم لها يخنق الشعب. وهي أشياء لا تأتي من الأفكار ومن التجارب الفردية، بل من أعماق الحياة الجماهيرية، من الأكواخ والشوارع، ومن كل مكان. ما عدا الفكر والتأمل الباطني. ونحن قد خسرنا كل شيء عندما توهمنا أن الملاحظة العابرة كفيلة بأن تفتح لنا، نفوسنا عن حلّ سليم لمشكلة بلادنا.

من هذه الأطر الإسلام. لقد قرأت القرآن. خلال هذا الأسبوع، فبدّل كثيراً من أفكاري. إنه تعبير صادق عن العرب. وقد بدا لي الشعب العربي من خلاله، جديراً بأن نثق به من جديد، ونتبنى الحدود التي رسمتها حياته، خلال هذه الأجيال الطويلة، التي كان فيها مظهر تأخر وانهيار. إن الطبقة الواعية التي مدت يدها إلى حياة الشعب وقضيته، قد ارتكبت أكبر خطيئة، عندما حاولت أن تضع حدوداً جديدة لهذه الحياة، أطراً جديدة، هي في أغلب الأحيان مستوحاة من تجارب فردية، مصدرها الغرب، ولذلك كانت هجينة، لم تمس الوتر الحي من نفوس الجماهير.. العرب شعب يرفض الهم الميتافيزيقي، لأنه يريد أن يحيا حياة مليئة، لا تتخللها أية تجربة من تجارب المعرفة والعلم، اللذين خلقتهما الحضارة الغربية، والروح المسيحية، ومزيجهما الآن هو روح العصر الذي يخلق فينا الهجنة والانحراف. فنحن شعب يؤمن بأنه من عبيد الله. لنا أرضنا وله سماؤه. والحرية هي مقدار ارتباطنا بالأرض ومحاولتنا تطعيم غريزتنا بنور الله، بالإيمان والعمل الصالح. إن كل تشوّف إلى امتلاك الله، يؤدي بالضرورة إلى الشعور بالعدم، إلى العذاب والدموع. وكل تجاهل له يمنح الإنسان ثقة بنفسه تجعله حياً في كل حين، مليئاً، بطلاً. وذلك ما فعله الإسلام.

أن إله المسيحية يحب ويرى في المخلوقات أطفالاً جديرين بالرثاء والعطف. أما إله الإسلام فهو زاجر قاس، يعاملهم كرجال أشداء، مسؤولين عن مصير العالم. المسيحية تريد المحبة، والإسلام يريد النضال. المسيحية تخلق أفراداً، والإسلام يريد خلق إنسانية، لذلك لا وجود للفردية في حياة العرب، إن العرب شعب قومي بفطرته. إن القيم التي تفرضها القبيلة أو الأمة هي القيم الوحيدة التي يمارس بها العربي حريته.

أرجو أن لا أكون قد أزعجتك، ولكن اهتمامي الشديد بمثل هذه الأمور، لسبب أجهله، دفعني إلى كتابة مثل هذا إليك.. من هذه الفكرة، يجب أن ينبع من جديد عملنا الحزبي وذلك يدفعنا قبل كل شيء إلى أن نعرف حق المعرفة هذه التركة التي خلّفتها العقلية الإسلامية، والتي هي وحدها تسيطر على شعبنا، ومنها وحدها، نستطيع أن نجعل لهذا الشعب نهضة حقة وبعثاً...

انتظر منك رسالة حول هذا. إن الروح المسيحية التي تسيطر على (زكي)[١] (وميشيل)[٢]، قد جعلت العروبة في نظرهما، شيئاً بعيداً كل البعد عن عروبة الشعب. إن عروبتهما كانت ثمرة تجربة فكرية فردية، أو ألم فردي؛ وهذا المفهوم عن العروبة هو الذي أملى الأسلوب الذي نعرفه في العمل السياسي، أسلوب الطليعة، أو الزعيم أو الكلمة الصادقة، علينا أن نبحث من جديد عن أسلوب عربي، وهذا الأسلوب، لن نعرفه قبل أن نعرف الشعب، ولكنني أتصور أنه الوحيد.

صدقي

(١) الأستاذ زكي الأرسوزي.

(٢) الأستاذ ميشيل عفلق.

دمشق ١٩٥٢/٢/٢٩

صديقتي..

كآبة عذبة في نفسي، تشبه يوماً ربيعياً غسلته الأمطار، تشبه نفساً متشردة أتعبتها المسرات، تشبه لقاءاً بين حبيبين، وهب كل منهما قلبه للآخر في ثقة وإيمان. الساعة الثانية بعد منتصف الليل. والعالم يتنفس في هدوء واطمئنان. وروح الصباح، تتردد في كل مكان، نقية صافية كقلوب الأطفال، في مثل هذه الساعات يبدع الإنسان نفسه؛ يضع يده على مفتاح الوجود، ويدخل جانباً جديداً من الحياة، يسير قدماً في فتح العالم..

لا شيء يخلق من الروح، إن انتعاش الجسد هو سر إبداع العالم. أية روعة وأية نشوة أن تحسّ أن قلبك يخفق للأشياء وللناس، ويذوب فيها، لتصبح إياه، لتعيش أبداً في وجيب حي، يغزوه الدم الأحمر القاني. اللغز هناك، وليس هنا، في ازدحام الوجود، لا في أوهام الفكر والتصور. إنه في الحاسة والعصب وليس في قفزات الروح. هناك الانطلاق الحقيقي، الانفتاح المليء الذي ندفع فيه ثمناً من كياننا، لكل لحظة من الزمن؛ وهنا في الباطن الأثيري، الكذب والأسطورة. الأشياء والناس والحواس؛ أي شيء يبقى للإنسان، إذا محيت هذه من وجوده، لا شيء. يبقى ذكرى جميلة ولكنها ذكرى. والموتى أيضاً يعيشون بيننا بالذكرى. فيجب علينا منذ البدء أن نعرف الأشياء والناس والحواس، نعرف فيها الحياة كلها، نعرف فيها الإنسان على حقيقته. كائناً نابضاً تتدفق فيه ينابيع صيرورة دائمة نؤمن بأنها تبدع كل شيء، دون أن يستطيع فكرنا القاصر أن يوضح لنا كيف يكون ذلك. إن نقطة البداية في الوجود هي الوجود في العالم، وليس جواز العالم. هو الأشياء والناس، وهي عنصر حياتنا وتربتها، ولكن الوجودية لم تستطع أن تجد في هذا العنصر شيئاً أسميه الآفاق، وأتخيله كالهالة التي يضعها الرسامون

حول وجوه القديسين. إن المتنبي كان يعيش مع هذه الآفاق في الناس والأشياء. إن شيئاً يزمجر - استعمل هذه اللفظة دائماً - حولنا ويشعرنا بأنه لا أثر لما يسمونه العبث في العالم. إن العالم يحمل معه معناه، يحمل معه لا نهايته. ومن أجل ذلك تتوجه إليه حواسنا، وتنتعش في عناقه. وما نسميه استجابة الغريزة، ليس إلا تطعيم تلك اللانهاية «الراعشة الجميلة» بإشراق المعاناة، معرفة المزيد من التجربة الإنسانية، فتح مغلقات الوجود.

هذه هي قصة الوجود الإنساني، قصة الوجود العربي، إذا تسامحتِ معي قليلاً وقبلتِ هذه اللفظة. اللانهاية التفتح، الإبداع الحر، هي كلها في الحاسة والغريزة، وليس في ذلك الفراغ الوهمي الذي نسميه «الباطن المتفتح» إن الحياة تكره التخلخل، تكره الانتظار. إنها نبع تتدفق أمواجه، متزاحمة متواكبة، وفي انطلاق النبع ومسيره، تصفو منه المياه، وليس في هدوئه وركوده. والروح الصحراوية هي هذا التدفق الذي لا يفهم إلا الامتلاء، إلا الأرض الملموسة، بينما تتعلق الروح الباطنية، بقيم، مهما تكن طليعة سامية، فهي تصور محدود، مجرد حلم جميل، وركود وثقة، ينتج من هذا أن القضية هي قضية الشكل. للشكل الحي الذي تعيشين فيه آفاقه، ولذلك فهو قابل للتجدد والخلق في كل حين. وعندما نتجاوز هذا الحد، نقف أمام مشاكل خطيرة لا تعطينا إلا القلق والهم، وتدفعنا إلى الفلسفة وتبعدنا عن الحياة، عن الإبداع، عن تلمس المطلق بحواسنا وأيدينا.. عندما نتجاوزه نهبط من عالم هو فوق الخير والشر، وفوق جميع القيم، إلى عالم التساؤل والحيرة: هل نحن أحرار؟ لماذا وجد الإنسان؟.. الخ.

تعب مفاجئ يهد كياني. أخاف السكون والليل، لأنني أخشى الأحلام. في أعماق نفسي همٌّ أسود يشبه اليأس. ليتني الآن قريب منك، لأقول لكِ: إن الحب ميراث ثقيل ألقته علينا الأحلام؛ غرسته في حجيراتنا يد ظالمة، كما يغرس الشوك في حديقة مترفة.

إلى اللقاء.

صدقي

دمشق ١٩٥٢/٥/٣٠

صديقتي..

انتظر رسالة منك منذ أيام لا لشيء إلا لأنني في حاجة إلى عزاء جديد. إن الشقاء يملأ جوانب نفسي في هذه الأيام، إنني وحيد في هذه المدينة اللعينة. حتى (ميشيل) نفضت يدي منه منذ أمد طويل. لقد عرفته، أهكذا قدر علينا، يا صديقتي، أن نفقد شواطئنا، واحداً واحداً، ونقف في عرض المحيط، على بقية سفينة تتهار، لا نرى ما نستنجد به غير الرياح والموج؟. ومن أحدثك عنه بدا لي خلال هذه السنة، رجلاً ضعيفاً، فَقَد آخر جذوة من نفسه، واندفع يتلمس حرارة لحياته من الخارج، من حب الشباب له، ومن سكوتهم عن ضعفه، ومن المظاهر، وقبل كل شيء من الماضي. وهل بعد هذا من رجاء أو أمل؟ وما هو شر من كل شيء، هو أنه قد انتهى، وما يزال يعتبر النهاية بداية له. ويريد أن يسمّر الحركة حيث هو... لقد نسي كل شيء إلا نفسه. الفكرة والوطن، والمستقبل، وكل شيء أصبحت بالنسبة إليه أوهاماً بعيدة، لا أهمية لها إلا بمقدار ما ترتبط بمشكلته، بنفسه، إنه يريد أن يجعل الحركة تجربة له. وأنا شقي بذلك من جديد، لأنني أشعر بأن كل ما فيّ من عنفوان يخمد يوماً بعد يوم... وأخشى ذلك اليوم الذي أتلمس فيه حرارة وحماسة لأكتب كلمة فلا أستطيع...

أما أنا فلا أزال كما كنت منذ سنوات. وذلك سر شقائي. ما زلت أعيش مأساة بلادي كما هي، ويخيل إليّ أنني أسبح في بحر من الظلام. أحب الفقراء والأطفال والمتألمين، وأكره كل ما تقدمه لنا حقارة البورجوازية من شباب ليّن، لا ينتعش إلا في دفء المنفعة، ولا يتنفس إلا النسيم المضمخ بعطر اللذة ودخان المظاهر... فهل قدّر عليّ أن أكون وحيداً إلى الأبد، حتى أقرب أصدقائي إليّ، يبدون لي كثيراً من الأحيان، وقد فقدوا كل قدرة على التفكير بمصير وطنهم، كأنهم يخشون ذلك...

تحياتي إليك، وإلى اللقاء.

صدقي

الفهرس

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

لم يكن صدقي إسماعيل نموذجاً للمفكر والأديب العربي، الذي يتميز بسعة اطلاعه ورحابة فكره فحسب، بل كان روائياً وشاعراً وباحثاً. فقد أشاع الفكر الأصيل نضالياً وفكرياً في نهاية الأربعينات، وفتح نافذة واسعة على الفكر العالمي بمختلف تياراته.

ولد صدقي إسماعيل في مدينة إنطاكية بلواء اسكندرون، عام ١٩٢٤، وعرف النضال ضد الاستعمار، منذ طفولته، وبعد المعاناة المؤلمة، انتقل إلى سورية وتنقل في المدارس الابتدائية والثانوية، ما بين حلب وحماة ثم دمشق.

يعتبر صدقي إسماعيل من أبرز المثقفين العرب الثوريين الذين قدموا من خلال كتاباتهم، ومن خلال الممارسة النضالية، إسهامات جدية في محاولة بلورة نظرية للثورة العربية المعاصرة. وتدور معظم كتاباته حول محور واحد هو الإنسان العربي وقضيته في العصر الحديث، مستعيناً برصيده الواسع من الثقافة العالمية المعاصرة.

جمعت مؤلفاته بعد وفاته عام ١٩٧٢ في ستة مجلدات، ضمت رواية (العصاة) ومجموعة (الله والفقر) و (العرب وتجربة المأساة)، ورواية (الحادثة) وكتاب عن (رامبو) وكتاب عن (فان غوغ)، وعدد من المسرحيات، هي (أيام سلمون) و (عمار يبحث عن أبيه) وغيرها، بالإضافة إلى مجموعة من القصائد الشعرية، ولا ننسى الجريدة الفكاهية (جريدة الكلب) التي كان يكتبها بخط يده على نسخة واحدة، بنقد لاذع سياسي واجتماعي وأدبي، وتوزع بين الأصدقاء، ولا أحد يعرف أين تستقر. وقد جُمع منها ما أمكن، وصدرت في مجلد خاص.

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٢٠٠ ل.س